ربيع جابر

سيد العتمة

جائزة الناقد للرواية ١٩٩٢

Twitter: @alqareah
17.10.2014

RIAD EL - RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

ربيع جابر

سيّد العتمة

رواية

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

Twitter: @alqareah

MASTER OF DARKMESS

by

RABIE JABER

First Published in the United Kingdom in 1992
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data

ISBN 1-85513-198-6

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الاولى: كانون الاول/ ديسمبر ١٩٩٢

Twitter: @alqareah

https://t.me/Borsippa_Library Tele: @Borsippa_Library

لأن الحجاب هو المحجوب والمحجوب هو
الحجاب، ذلك هو وهو ذلك، لا فرق بينهما.

«من رسالة مقدسة»

الف عام ماضيــة في الف علم واردة هوذا
الوقت، ولا تغرنكم الأشباح.
فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة.
الواحد لا يصدر عنه إلا واحد.

«من اقوال الصوفية»

عدمــت فؤادي في الهــوى ان سلاكــم
فلن فؤادي لا يحــب سواكــم
سقــاني الهــوى كاساً في الحب صافياً
فيــا ليــتــه لما سقــانــي سقــاكــم
فلو قيــل لي ماذا على الله تشــتــهــي
لقــلت رضــا الرحــمــن ثم رضــاكــم.

«الف ليلة وليلة»

ملاحظة: تدخل في هذا العمل بعض الجمل أو المقاطع المقتبسة من كتب تراثية، فيشار اليها عبر النص وبشكل مبطن، لأسباب محض فنية.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مساء عودته الى البيت الكبير عدنا لنتذكره فعبرنا حقول القمح البائدة دون أن نعير حفيف الأيام المولية انتباها، وقفزنا فوق أحجار البيدر متناسين آلام الكسر والجبر، مخلفين نساءنا وراءنا يشتعلن قرب المواقد مع بقايا الحطب في انتظار عودتنا، نحن الذين تجاوزت قلوبنا آفات الشوق الى رؤيته وحمى الحنين الى وقع حوافر حصانه، وتملصت أدعيتنا من استسقاء البركات فوق ظله أو هكذا توهمنا مذ أصبحت رصاصاتهم أقل ذعراً وصراخهم أكثر ثباتاً ونارهم أعلى دخاناً اذ أضحى الشك في وجوده يلتف فوق اليقين كشرنقة القز، فما لبث الأخير أن اضمحل تحت دعسات جزماتهم التركية وأعقاب بنادقهم وهي تحطم الأبواب وتصادر ما تبقى من حفن قمح وسوس مخبأة في حفر مزوية في جوارب مرقعة لحفظ الزبيب أو مقدار ملعقة من الزيت المحروق لسراج قديم ما عدنا نجرؤ على ذكره تحت وطأة ليالي المداهمات المباغتة للمجاعة المتفشية كنار الخماسين أو صباحات الصلوات المتشابكة بالتين البري بين أخاديد رعبنا الطافحة بعفونة حيوانات منفرة وجثث مأكولة وصدى مبعثر لرائحة قبائل من الجراد المتخم حتى النخاع، تحفر جذع آخر شجرة تين في ضيعتنا اذ تنبهنا الى وسيلة لحمايتها

Twitter: @alqareah

قبيل فوات الأوان، فحجبناها عن مليارات الأعين الدقيقة بأغطية صوفية لم تلامس جلداً بشرياً منذ رحيله اذ إنها كانت أغطيته هو بالذات وقد اعتنت بها أمه شهراً تلو شهر، محفوظة بأمان في أجمل غرف البيت الكبير، مكوية بعناية ومغمسة برائحة الخزامى لحمايتها من العث، مرتبة في زاوية غرفته حيث قضى مئات من لياليه يفكر بما لا يعرف أحد منا كيف عبر رغم ضيق الباب المؤدي الى المصطبة، مصطبته حيث عربشت ذات يوم تعريشة عنب تفاحي قبالة شجرة التين التي ارتعشت أمام ريح غادرة هبت فجأة تمزق أطراف الأغطية بينما قبضاتنا المتيبسة كالحجارة تدق باب غرفته المطلي بالجراد وأصداء الدعاء والزغاريد المتطايرة حول الجدران، ولكن عبثاً كنا نداعب أوتاراً يئسنا من الضرب عليها تحت تأثير الخيبة المتواصلة، فكيف سيعود وهو الذي أعلن مقتله عشرات المرات، وجد حصانه ميتاً في سبع قرى محروقاً بالقطران الرمادي، ممزقاً بالخناجر الهندية، مشنوقاً بسلاسل نحاسية، مسمماً بمبيدات الجرذان، غارقاً في نهر الدامور ثم في نهر الليطاني إلا اذا كانت كل تلك الميتات المعلن عنها في أضخم المناسبات والأعراس خدعة هائلة لتجريده من المؤيدين وجعلهم أعداء له، فيظهر إذ يظهر كمحتال يبغي رغيفاً ساخناً أو قطع طريق نائية اذ كيف يمكن ان يكون هو، كيف يخرج المقتول من نومه الفتاك بهذه السرعة فوق حصان أسود يرمح كالريح مع خنجر فارسي، يزين حزامه غدارتان اسبانيتان وبندقية دك لا يعرف لها عمر، ولا تكون عودته مجرد وهم آخر ليضاف الى أحاديث وأخبار متفاوتة الأهمية حلت مكان المتة وبذور القرع واللقطين وارتعاشة فرح معتقة ارتدت قاسية لتحطم نشيداً صعد في غفلة من زمن المتهافت، اذ توهمنا أنه عاد بصورة

Twitter: @alqareah

مفـرطة في الخيال، فلم تلبث أن برزت مجلوة بوضوح بركة مياه راكدة في حزيران إذ لمحنا وجه أمه داخل غرفة نومه جافاً ممزقاً بالبثور كعادته مذ بدأنا نرى الأشياء ونحكي عنها، وامتدت أناملها لترفـع المـزاليج. ولقد كانت طويلة ونافرة العروق ومجعدة كما عهدناها أبداً، لذا أوشكنا أن نتساقط كحص تراب مزقتها خصلة ماء لما بانت أسنانها الثلاث في ابتسامة واهنة وهمست: عاد مع تسعة أكياس قمح ودزينة رجال. وتركناها تجرنا من حيرتنا الى بهو الاستقبـال عبـر باب المـطبخ اذ إن المدخل الرئيسي والمؤدي الى البـاحة كان قد أغلق بالرتاجات المعدنية كما أن الشبابيك كانت مدعمة بالعوارض الخشبية منذ رحيله، وتركناها تصفنا عند العتبة أمام الهواء الثقيل تحت النسيم الزاحف مع الجراد من باب غرفته كي ننظر الى أكياس القمح، مكومة في الزاوية أمام الباب العملاق الذي كان لا يزال مغلقاً بالرتاجات المعدنية، معفرة بتراب الطريق، مبللة قليلاً، ومنتفخة كانت الأكياس، وكنا نلتفت معاً الى أمه ونغيب في الدهشـة دون أن نجـرؤ على التلعثم. وكـان وجـه أمه خشباً ولابطيها العفونة في بركة مهجورة. عندئذ أخبرتنا انه رحل، مشت عبـرنـا الى داخـل البهو، قالت: رحل، والرائحة تتساقط. دفعت أكياس القمح الينا بهيجان ثور. قالت إنها لنا كي لا نموت. حطمت الرتاجات المعدنية في جنون ارتباكنا المخيف. قالت: كسرت دعامات الشبـابيـك. انتزعت صدأ المسامير بأسنانها. دفعت المصاريع. قالت: رحل، وتنشقت الشتاء البارد للمرة الأخيرة.

ولقـد توجب أن نعيش كثيراً حتى ندرك استحالة حصول ما حصل أمام أعيننا وكي نغرق في دوامات لا تنتهي حتى يبدأ أحدنا

Twitter: @alqareah

بتمزيق المنظر واعادة ترتيبه، فيؤكد انخداعنا بالنور الصادر عن الشمعة اليتيمة التي كانت مضاءة في غرفته ومفسراً بالتالي قدرة أمه على دفع المصاريع وفتح الباب والشبابيك قبيل موتها، فذلك لم يكن ممكناً إلا اذا كانوا قد فتحوا المدخل الرئيسي ليدخلوا أكياس القمح، ولكن من هم حقاً وهل أتوا معه وأين رحلوا؟ واذ نجد أنفسنا نلج من ضياع الى ضياع ونمارس شتى انواع الأكاذيب كي نكذب ما رأت عيوننا، نبادر الى صياغة أخرى وأكثر من مقنعة قبل أن يتذكر أحدنا رائحة تتساقط خلف أمه أو مسامير تسحب بالشفاه وأخته تندفع نحوها وتهوي أمام أعيننا بينما رياح كانون تجتاح بهـو الاستقبال للمرة الأولى منذ رحيله، فتفسد عندئذ الصياغة ويغمرنا زمن عودتنا عبر حقول القمح البائدة في تلك الليلة ذاتها التي لم نكن نتصور أنها ستكون ما هي عليه الآن اذ لم نفكر بهذا ولا بنسائنا وأطفالنا والذهول، وأكياس القمح تنداح طحينا، ولا بهجوم مفاجيء من عصابة جائعة اذ كنا مسكونين بهاجس واحد لا غير، فمن جلب القمـح ولماذا رحل مسرعاً؟ ولقد خيل الينا أننا سمعنـا حوافر أحصنة قوية تخب مبتعدة فوق الأرض الصلبة، ووقفنا دون همسة وانقطعنا عن التنفس، وأصغينا جيداً لندرك أن ذلك كان مجرد وهم أيضاً، فالأرض كانت موحلة، وعزف الريح يصم الليل حتى أننا للحظةٍ مشعة عند الفجر الجليدي تركنا تلك الفكرة الغريبة تتبادر الى أذهاننا.. أي أننا كنا نعيش حلماً فقط، وأنه كان حلماً خاطفاً وجميلاً وحافلاً بالقمح، ولكنه كان مربكاً أيضاً، وعند تجـاوزنـا البيدر واقتربنا من شجرة الجوز العملاقة حيث أقام أجدادنا بيوتهم التي انحدرت الينا بحكمة الأيام والرب، التفتنا الى الخلف ونـظرنـا الى الأسفل، فشاهدنا أنوار القناديل والشموع

Twitter: @alqareah

تحيل البيت الكبير قفير نحل مشتعلاً داخل العتمة التي تسرح خلفه.

ولقد كانت الجنازة مناسبة مثالية لاستعادة حادثة موت أخيه ومن ثم فراره الذي أدى الى بدء ليله السحري كما كانت فرصة مؤاتية لحديث مكرر عن اللعنة المصوبة على البيت الكبير.. لعنة الميتات الغريبة، والتي ابتدأت قبل قرون ولن تتوقف مع موت أمه، ذلك ان أمه لم تعقد بموتها آخر الحبل. ولقد بدا ذلك جلياً كسماء الأول من نيسان بعد توزيع أكياس القمح التي تركها لنا في البيت الكبير ليلة موت أمه، وبعد انتشار أخبار سريعة عن دوريات عساكر تبحث عن مهربين وقطاع طريق ووجود فرق من الخيالة المسلحين في الجبال. وأثار هطول رذاذ خفيف مع سحابات الجراد المبتعدة همسات جذلة، وبدا أن الرب كان يبعث الخير لضيعتنا مغزولاً بموت سكان البيت الكبير الى حد ما كما اقترح أحدنا، لكن آخر ذكرنا بالحقل الذي أغرقه ليلة فراره عقب مقتل أخيه، فبدت ابتسامات خفيفة تصعد بعض الوجوه، ولكننا أخضعنا الأمر لمختلف وجهات السرد حتى تبين لنا أن أحدنا يجعله يفر راجلاً بينما يزوده آخرون ببغل، ولا يتوانى البعض عن ان يمنحه جواداً اصيلاً في حين أقسم البعض بتراب أجداده أن فراره كان في ليلة مضاءة بقمر كالشمس.. أقسم آخرون بالرب أن ذلك حصل في ليلة دون بصيص نور بحيث أن المرء لم يكن بوسعه أن يشاهد اصبعه لشدة الظلام بينما باشر ذو رنّة ذكية الكلام عن هروبه وسط الظهيرة والريح مع ضحكات مخنوقة، ولكن ظهر أن أكياس القمح اضافة الى سحابات الجراد الراحلة وذعر الأتراك المتصاعد مسحت آثار الحزن الذي يفترض أن يتبع أي موت غير متوقع،

Twitter: @algareah

فكيف اذا كان موت أمه هو بالذات الذي أنقذنا من الموت مراراً مذ فراره عقب موت أخيه، هو الذي لم يعرف بهذا الموت الذي حصل عند الظهيرة حتى المساء لما عاد الى البيت الكبير، ساقاه ترتجفان من التعب، وكتفاه تكادان تنخلعان من حمل المجرفة والمعول، فواجهه أبوه بالخبر وهو يزنر الحزام الجلدي: أخوك مات والبقية بحياتك، قبل أن يلتقط انفاسه أو يسأله عن الكدمات حول عينيه والشق المدمى في شفته السفلى ولماذا تأخر كي يعود.. دون أن يمنحه لحظة واحدة ليتذكر أياماً جميلة قضاها مع أخيه أيام ملاحقة الماعز والبقر بين الصخور والأشجار الطويلة، فأجابه: تعاركت مع رجال البيك على الماء، دون أن يخفض رأسه، فارتعش أبوه غضباً، وأمره أن يذهب على الفور فيقبل يد البيك ثم ينزل الى حقل البيك فيرويه كله قبل أن يعود الى البيت الكبير، ولم تكن التوسلات أو اشارات أمه الخفية لتغير شيئاً، فتجعل أباه يؤجل العقاب حتى الصباح، فيسهر قرب كفن أخيه، فاستدار ومشى صوب قصر البيك دون أن يسترجع على الأرجح حادثة العراك عند النهر، اذ إنه في أغلب الظن كان يفكر بأمر أخيه الذي لم يره منذ أن سجن نفسه في القبو الملاصق للبيت الكبير حيث سكنت عمته ذات يوم. وهكذا سامحه البيك، فوقع في النهر، فجرفه وشج يده بصخرة حادة، وظل ينزع الأعشاب من درب المياه حتى منتصف الليل تقريباً عندما أخذت المياه تسري بسهولة بين شجيرات التفاح الهشة، فتنبأ وهو ينظر الى النجوم ويرفع قنديل الكاز المشتعل فوق رأسه أن العمل سيستغرقه قرابة العشرين ساعة. وعندها فقط أيقن انه لم يسأل أحداً عن موعد دفن أخيه، وقبيل الفجر أبصر خلال الضوء المجمر جباً من الشوك الأصفر يطوق نصبة تفاح

Twitter: @alqareah

طريـة، فانهـال عليه بالمجرفة حتى مزق جذع من الشوك كتفه، فجعله يطلق صرخة ألم ساحقة، وتناهى اليه صدى الوادي الفارغ، فرمى المجرفة. بلع ريقه المرّ. أحس بالشوك ينمو في حنجرته، فلعن ساعة أطاع فيها أباه، وحوّل مسرى النهر برمته صوب حقل البيك. ومنطلقا باتجاه الجبال المغلفة بأشعة الفجر المدماة ترك ضيعتنا. وراءه أرسـل ضـحكتـه تقهقـه في العتمة في حين انطلقت حشود ضفادع داخل مياه أسنت لطول رقادها في ضـجيج متوتر متواصل هو نشيد بدء ليله السـحري.

حضر البيك شخصياً ليقدم التعازي بينما بكاء النسوة والحداء يتصاعدان من المجلس المضاء بالشموع حيث سجي الميت. حصل ذلك قرابة التاسعة ليلاً، والجثة تزداد تعفناً، والرائحة تشتد حدةً رغم انه لم يكن قد ذاق طعاماً أو شراباً منذ اسبوع.. أي منذ دخل القبو وأغلق الباب الخشبي عليه، وكانت احدانا لا تنفك تطوي قطع القطن التي انتزعتها من مخدة عمته، فتغمسها بماء الزهر وتجدلها جيداً قبل أن تدفعها داخل فتحتي الأنف وفي الاذنين كي تمنع الرائحة من التفشي، ولكن عبثاً، كانت رائحة أخيه الساخنة تزحزح القـطن المبلول وتدفعه الى الخارج مع بخار شفاف، فتنتاب أبوه موجة عطاس ترفع وتيرة الحداء بحيث يبدو تراقص ظلال الشمعات محـاولة ساخـرة ومرّة لأمر غير معروف. وتبدأ احدانا ثرثرة من زاويتها المعتمة كيف أنه مات جوعاً وغباء ايضاً، فلا تجرؤ أخته ان تهمس لها بما كانت تعرفه هي فقط والميت طبعاً، ذلك أنها شاهدت يده تمتد عبر ثقب الجدار بين القبو وقن الدجاج فيسرق ماء الطاس الوسخ والبيض أيضاً اذ وجد نفسه غير قادر على العودة وعاجزاً

Twitter: @alqareah

عن المـوت في الآن ذاته، ذلك أنه كان يخاف هذا الأخير بقدر ما يخاف الحياة، فلم يستطع أن يواجه أياً منهما، فصعقه الخوف لما صرخ أبوه به أن لا.. لن تتزوجها، فلقد وجدت لك امرأة جيدة، فلم يقل له ما ظل لياليَ طويلة يعدّه في ذهنه أمام صـخرة الغدير قرب قن الدجاج داخل فراشه بل تقهقر متراجعاً، وتلعثم مهرولاً نحو القبو مخلفاً وراءه جملاً محطمة مثل: لن أخرج إن لم تتركني أتزوجها أو سأقتل نفسي في هذه الحالة. دفع الباب الخشبي خلفه في صرير مديد وأسقط المزالج. ولقد كان ذلك عادة، لا صرعة، كما قال احدنا اذ إن عمته كانت قد لعبت الدور ذاته قبل نصف قرن وأكثر في ذلك القبـو أيضاً بعيد مقتل جده الذي أوصى أمام الشهود على ورقة صفراء سميكة، مقلمة بخطوط سوداء، رفيعة عمودياً. إنها فقط اذا انقطعت عن الرجال تعيش في البيت الكبير مع أبيه بدون جميل أو منيـة. وإن لم تتفق على الاقامة معه يكون لها محل سكن القبو المـلاصق للحـارة، وأن يقـدم لها معاشاً كافياً وفرشتين كاملتين وطنجـرة ومقلاة وملعقة وسكيناً وصينية نحاس ومطواة وحصيرة ودجاجة واحدة، فلما تزوج أبوه أخذ يدفع عمته صوب القبو رويداً حتى استفاقت ذات فجر حاد، فوقع نظرها على القبب الحجرية السوداء، وشمت رائحة الروث المتعفن في جرن الماء. وجدت قربها حصـيرة وملعقـة ومطواة وسكيناً وطنجرة وصينية نحاس وتحتها فرشتـين كاملتين، وفتشت عن الدجاجة فلم تجدها، فاستشاطت غيظاً، وأعلنت أنها تفضل الموت على هذه الدنيا الفانية، فكان يقدم لها من ألوان الطعام ما تشتهي الأنفس وتلذ به الأعين، فلم تأكل من ذلك كله إلا رغيفاً واحداً بملح وزيت في اليوم الرابع، وإن كانت واسعـة الخيـال زعمت أن ذلك سوف يحصل في الليلة الخامسة

Twitter: @alqareah

عشرة بعد المائة، ولما أخذت عمته تزداد نحولاً يوماً بعد يوم، وتترك باب القبو مشرعاً أمام الرائح والغادي، وتتحول قفة من العظام، بوشرت استعدادات سريعة لحكايات لئيمة حول بخل أبيه وأكثر. وبين القيل والقال، دخلت دجاجة بيضاء هزيلة الى القبو، تنفض ريشها من النور، ولقد اختلفت نهاية الدور ربما، لكن النساء يشبهن الدجاج من نواح متعددة، أضاف ذو رنّة ذكية، ثم ان موت عمته مغزولة بالحرير كشرنقة دودة قز عملاقة لم يكن أقل غرابة ابداً من موت أخيه. وفي حين تبعثرت سحابات الجراد بعيداً خلف شمس ذابلة، بدت غيوم بيض مثلجة تلتف حول فجوات زرقاء لها في العظام قشعريرة باردة، أتى أحد الأولاد، وأخبرنا عن فرقة خيالة عبرت بالهوة. كانت أخته قد وضعت أمه في تنورتها السوداء الطويلة. ولما استعصت عليها ازرار الكنزة النحاسية خاطتها بأمراس غامقة اللون على وجه السرعة ثم سحبت الغطاء فوقها حتى العنق. وكنا قد غسلناها جيداً، وصبغنا شعرها بالحنة وجدلناه جيداً قبل أن نبلله بماء الزهر ونلفه بمنديل، لكننا كلما أدخلنا القطن في فمها ابتل وسال فكأنما هي حية. ولقد همست احدى العجائز بكلام عن خيط معقود أو عين زرقاء أو سحر مشؤوم يجعلها تتقيأ خلال مماتها. وسرعان ما طار الحديث الى الجهة المقابلة حيث تلعثم صوت تحت تأثير طلسم خرافي من أيام المقدمات الصبورة، وتحدث عن ساحر في الجبل يشير الى كساء أو جلد، ويتكلم عليه في سره، فاذا هو مقطوع متخرق، ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج، فاذا أمعاؤها ساقطة من بطونها الى الأرض. وأتى من يخبرنا عن جثة تطفو عند رأس النبع، فنسينا لعنة الطلسم والعقد، وأخذنا نعدو صوب حقله.

Twitter: @alqareah

وفي أحـاديثنا المسائية حاولنا الاّ نجد شبهاً بين جنازة أخيه وجنازة أمه باستثناء وجود جثة في كلتيهما اضافة لأحاديث الميتات العجيبة، ففي حين أدارت طاحونه الأولى رياح أبيه وأمه فان أخبار عودتـه الغـامضـة قبيـل رحيـل الجراد شكلت مويجات الحركة الوحيدة في جنازة أمه الراكدة على الأقل حتى الفجر حين تقيأت معدة نهر مضطرب أو ربما هزة تبول بشدة جثة فارس تركي تلتف أمعاؤه معسولة على غصن يبعج بطنه، فقلنا إنها ميتة غير عادية، وإنه لو لم يكن تركياً لجزمنا أنه من ذات السلالة، وإن لم نكن قد رأيناه في البيت الكبير. كنا نحفر بسرعة عند جذع توتة متوحدة كي نطمـره قبل أن يفوح الخبر، فتأتينا العساكر التركية. لما سمعنا طلقات بعيدة من خلف التلال ومن ضيعتنا، عدنا مضطربين لنجد جنازة أمه مستمرة بأكثر الصور طبيعية اذ انهم لم يسمعوا أية طلقـات في مأساة غرقهم حتى آذانهم في مصيبة العين الفارغة. وبدأت احدانا تكتب خطأ فعالاً على وريقة مستطيلة وتذيب ريقها فوق أطرافها قبل أن تعيد طيها ثلاث مرات متتالية تربطها بخيط معطر وبخيط صوفي تعلقها بعنق أمه قبل أن تضـع قطعة قطن في فم أمــه، فتتسمر تحت السن الباقية ولا تبتل أبدا. ولقد أطلقنا تنهدات الراحة بينما صرخت أخته برعب إذْ أيقنت ان أمه ماتت حقاً، فتوجب علينا ابعادها عن المجلس وادخالها الى غرفته حيث فتحنا الباب أمام النسيم الرطب كي ننعش الجو، فاجتاحت الغرفة رائحة تين أخضر، فلم نتنبه وقتئذ الى معنى اننا كنا مازلنا نعرفها، وكانت تبرق شمس ظهيرة ذابلة وأرض الغرفة ملوثة بالوحل الذي جلبه رجالنا في الليلة السابقة كما يفترض، لم نستطع تهدئتها حتى انبرت لها احدانا بصفعات مدوية متوالية جرتها الى عاصفة صراخ

Twitter: @alqareah

ساحقة عقدت لسانها بأحكام سيلت الدموع على خديها في حين تعالى الحداء، فخرجن مسرعات اذ إنهم كانوا يستعدون للسير بالجثة نحو المقابر، ليس بينها مقبرة له.

وخلال سيرنا نحو المقابر تعالى الهرج خلفنا، فأدركنا أن ثمة من تلاشي. ولقد كانت تلك خالته، زعقت زعقة مكبوتة، ووقعت مغشياً عليها، فأخذنا نرشّ ماء الورد على وجهها حتى أفاقت، فحملناها ومشينا بها حتى شارفنا المقابر، فاذا بها تصيح كالمجنونة ثم ان روعها هدأ، فأبعدنا الذهول عن الادراك، أضحينا كالأصنام بلا حراك حتى تحرك موج بحرها ثانية قبل ان تسكت تماماً تاركة عينيها مفتوحتين على السماء وريقها يلمع على شفتيها دون أن تمنحنا ما يكفي من الوقت حتى نفهم كيف غدت منذ تلك اللحظة كل الصورة المتبقية من أمه إن لم نقل إنها عندئذ فقدت نفسها تماماً، ماتت وقامت كما تبين لنا بعد زمن طويل إذ اكتشفناها على انها أمه، في الريق الذي يلمع على الشفتين واللسان مذراة الحكايات فكأنها تفتح عينيها كي تشرعهما على الفضاء في تقليد مدروس لكنه عفوي اذ أنها كانت قد كفت عن أن تكون خالته وأخذت دور أمه في نظرات مصوبة الى فراغ يصنع وهمه هو حلم امه غير الواقعي أبداً في أن تعيش بين رعية ملك غيور، فتخبره حكايته، فيتعجب منها غاية العجب، ويأمر أن يكتبوها بماء الذهب. ذلك ان أولادنا كانوا يتحومون حولها في أمسيات شباط المثلجة، فتملأ بطونهم بأخبارها، وترسلهم الينا مخمورين بشراب سحرة ذوي وجوه جميلة يحولون الناس الى عصافير لم تغرد إلا في مخيلتنا خلال ضجيج نقلنا جثتها الى مسكنها الجديد حيث سيتوجب علينا أن نحط الرحال. ذات ظهيرة حارة في لباس نظيف، لكنه مشبع بنتن

Twitter: @alqareah

هو نتننــا، داخل تابوت خشبي هو تابوتنا، ملفوفين حتى النخاع بحدائنا، ورائحة مقيتة هي رائحة العنكبوت لدى هجراننا بيوتنا القديمة حيث كنا نولم للأقارب والجيران، وننام لياليا مع أزواجنا، ونلاعب أولادنا، ونقدم الوعود، وحيث كنا نتهيأ لنهار عمل في الغد ونفكر بهدم نصف الجدار كي نبني غرفة ملاصقة إذ إن طفلاً آخر سيرى النور قريباً، عسى أن يكون ذكراً هذه المرة، هكذا كنا نفكر بأن يدركنا همس الحياة عند عتبات موت أحدنا، فنشعر بلفح ريح تعبر هواء بيت منخفض السقف، مليء بالعظام، وتشدنا اليه كورق التوت في فوضى اعترافاتنا الفتاكة وزعمنا أن الأحوال ستتغير بينما فلوات ليـال جرداء قادمة تتهيأ لإنبات أصداء حوافر خيلهم كي تقض مضاجعنا بقدر أسود محتوم هو قدر ضيعته. سيد العتمة يجوب جبال الليل كي ينتقم لنا، ويمزق عنا غيم المجاعة في ترحال خفي لا يهدأ عبر طرق منحوتة في صخرتي رائحة العرق كي يرمي بأكياس قمح منتفخة عند أبوابنا، أملنا الوحيد، والذي يصل دائماً في آخر لحظة رغم خيالة أتراك مبعثرين والجرار، ليدفعا عنا شبح الحيــاة ويغلقا أبواب سيرته الى الأبد بأقفال نارية تفوح برائحة البارود، ولكن عبثاً، اذ إنه كان يزلق كالصابون من أشد الكمائن احكاماً، فيظهر على متن فرسه فوق التلال المقابلة هازئاً بهم بينما يحاصرونه في الوادي، ويجلس يتناول زيتونا مع أرغفة ساخنة عند رأس النبع بينما يكمنون له قرب الهوة، ويصفع مؤخرات ترددهم بينما طلائعهم تتحفز للانقضاض على خيال فرسه، وليس فوقها فارس، حتى يأتي الفجر، فيضمحل كأنه لم يكن لولا ما يتركه وراءه من جثث باللبــاس العسكـري وأخبار أسرع من البواشق وطبعاً صدى بارودته المجرية، غنمها من أحد الباشوات في أولى معاركه.

Twitter: @alqareah

حصل ذلك عند المغيب لما حطم تشكيلات الحرس الخاص المحيطة بالباشا، تصحبه عاصفة صراخ مرعب لا يحميه الا الله وخنجره، فبعج بطن الباشا المقذوف امامه، والذي كان بمتانة سبعة رجال اشداء، فما كان من الباشا الا أن رفع بارودته وسددها الى وجهه دون أن يضغط على الزناد كأنما يقدمها هدية اليه، فتلقفها مسرعاً بينما أمعاء الباشا تندلق على الوحل، وفجّر بعقبها رأس أول الفرسان المتقدمين. ومنطلقاً فوق حصانه الأبيض، سددها الى فارس مدجج صمد له، فهوى. واختفى كما ظهر عند غروب شمس السابع عشر من شهر رمضان سنة اشتعال ليله السحري وبدء اغاراته على قوافل القمح التي كانت تعبر وادي القرن لما كانت الأخبار تصل الى ضيعتنا قبل القوافل، فشاهد أمه جالسة عند المصطبة الأمامية قبالة المدخل الرئيسي وقد سددت نظراتها نحو السماء مبتلة الشفتين، تزيت مفاصل حكايات الليل، تعيد رتق ثقوبها عبثاً اذ انها مع كل قطبة اضافية كانت تمزق بعض النسيج، ومع كل مفصل يرتخي أمامها كان ثمة مفصل آخر يبدأ، يقطر صدأ عند كل تلاوة حتى انتابها الضجر، فصرخت: خذوها على علاتها أو اذهبوا احشوا بطونكم بالحشيش يا كسالى. تأخذ تترنم بأغنية نائمة هي أغنية لياليه المتجولة فوق فرس لون الثلج، فالتمع في ظل المنحدرات التي لا نبصرها،يمزق دروب الفجر الخجولة، يترك بارودته المجرية تقفز، تخدش كتفه. غدارتاه محشوتان تلكزان ظهره وخاصرته، عصابته فوق أحصنة منهكة خلفه، تكسر كتل الصمت الخريفي والتراب، تردد أغنيته. لأني كنت أجعله ينام عليها. أخبرتنا وثبتت نظراتها البعيدة دون راحة، مبتلة الشفتين دوماً، وجهها مشبع بالبثور الناتئة والقساوة الفائرة

Twitter: @alqareah

عنـد الخـدين لتحيك لنا على عجل أكمام ليله السحري وتجعلنا نضيع بين متى وأين وكيف ولماذا، فنجد أنفسنا منقادين لنقول ما رأينا في حقل التفاح حيث ابتدأ تجواله ولكن قبل سنوات موغلة في البعد يوم لم يكن أخوه رآها بعد أو عرف بوجودها.. حبيبة لحظاته القادمة دون ان تصل. ذلك أن بيتها كان في طرف الضيعة الآخر حي الكروم بينما كانت أيام أخيه تتأرجح بين البيت الكبير وحقل أبيه عبر طريق ترابية ضيقة خلال أشجار التفاح فكنا كما ذكرتنا امه نحمل اجسادنا حتى حقل أبيه فنراه يلف لفافة تبغ سميكة بينمـا هو وأخـوه يأكـلان. بمـاذا كان يفكـر وقتئـذٍ وهـو يأكل مع أخـيـه ويـنـظر إلى أبـيـه يدخـن اللفـافـة يا ترى؟ وغبنـا في الذكـرى، فرأينا أخاه يملأ أرغفة خبز نسيتها أمه على الصاج قليلاً من البرغل المطبوخ بالدهن وربّ البندورة مع بصل اخضر رغيفاً تلو الرغيف، وبصلة تلو البصلة، يلتهمها على عجل، ويتوقف بين فينة وأخرى ليرفع جرة الفخار ويدلقها فوق فمه بينما أبوه يواصل تحديقه الى أشجار التفاح ومبادلتنا الكلمات بالجمل إذ إنه كان يعرف في سره أننا لم نأت من أجل النصيحة بل جئنا لنشـاهد الأرغفة كيف تؤكل وتلال البصل كيف تهوي وتضمحل حتى قال: والحمد لله قد شبع وقد نسينا الدبس إذ انه كان يخرج دبس العنب أو ينوي. ذلك أن أخته سئمت من مواله التقليدي: زيـدي التين قليلاً لأن الخبز مرّ، وضعي دبساً فدونه الطعام لا يشبع، فلا يشبع معه. قال أبوه وشكر الرب على نعمه إذ ان الطعام لم يكن يذهب هدراً، وكنـا نـنـظر الى أمـه، الى عينيها المسربلتين بالشرود، الى شفتيهـا جفّ الريق عنهمـا، فنسأله المزيد بعيوننا الطافحة بالشرور وبسراويلنا المفعمة بالبراز، فكانت تلتفت الى النار

Twitter: @alqareah

تلقمها حطباً أو تنفخ جمراتها الخابية، ونطير من ثيابنا شوقاً إلى ما يتبع، فكانت تجعل السعال حجتها معلنة أن الوقت قد تأخر والعاصفة قد تشتد، فتودعنا عند العتبة بقبضات من بذار اللقطين المقلي والمملح ثم تعود الى نارها تطفىء جراتها مبتلة الشفتين مرة أخرى. كان الريق يلمع بوهج النار. يهوي رأسها فوق ركبتيها نعساً بينما أخته تهيىء فراشها، فكنا نغادر بدون همسة، تتلقفنا حقول، قمحها جراد، عاصفة ريحها اضطراب. تسترق النظر من شق الباب، ذهبوا، وتتمدد أمه على فراشها إذ انها كانت كجدة جدته، هي أخبرتنا، لا تجيد ربط العقد إلا قبيل النوم، فكانت عندئذ تشاهد أخاه مغمضة العينين، ولكن فقط قبيل النوم، يسير حاملاً فأسه، حديدية، وشفرتها تلمع بالشمس تاركاً بطنه يمزق قميصه المبلل بالعرق، وكانت تشاهد بكل الوضوح الممكن أربعة رجال من رجال البيك قابضين على فؤوسهم يضحكون بصوت عال، فيا له من أبله، كانوا يتهامسون أو سننغلق من الدبس دون أن يفكروا للحظة واحدة في امكانية هزيمتهم حين صاح صوت: الآن فانطلقوا. أخوه وفأسه نحو غرب الحرج، ورجال البيك وفؤوسهم نحو الشرق، فأسقطوا شجرتين قبل أن يسقط واحدة، وانحلت عضلات وعلت صرخات، وشاهدنا أخاه يسقط آخر شجرة بضربتين مروعتين انداح لهما الهواء في صفيق أبواب سريع بينما ينظرون الى الأشجار التسع المتبقية من حصتهم. صرخ أبوه أن الطعام ليذهب هدراً، فضجّ الحرج البائد بالضحك إذ انهم كانوا يلعنون الفؤوس المؤنثة والشمس التي تضرب الشرق أكثر من الغرب بينما أخوه يترنم بأغنية صبيان على نسق: أنا جسمي من نعناع، وعظمي من ياسمين، الفراشة أثقل مني، وضرباتي نسيم، ممنياً

Twitter: @alqareah

نفسه برطلي دبس عنب. ولم تكن أمه تعلم قرابة تلك اللحظة إذ يظهر وجهه هو في المشهد أتكون صاحية أم نائمة. ذلك أن الألوان كانت تتغير عندئذ والظلال تختفي. فكأنني أحلم. كانت تقول لنا، فكنا نقاوم الصداع الذي ينتابنا في محاولة فهم ما تقول إذ اننا كنا ندرك جيداً أنها لم تكن تهذي لأن ليس يوجد هذيان محطم بهذا الشكل، الأمر الذي كان يدفعنا الى مزيد من الحيرة، فلا نعرف من قال كذا ولمن قيل ومتى بينما أمه تلتف حول حكايته لتخبرنا عن جدته المزعومة وكيف تتشابه اللعنات لأننا لم نكن نعلم من تقصد بذاك ومن تعني بهذا ولا كيف مات فلان حتى نهاية الخبر، فلا تنقذنا من ضياع حتى ترسلنا في آخر. وهكذا حتى عادت الى الحديث عن عمته التي ماتت مغمورة بالحرير، فتنفسنا الصعداء إذ اننا كنا نذكر ذلك اليوم جيداً، لكنها سرعان ما كانت تجرنا ثانية الى دوامتها المفضلة.. دوامة جدتها واسعة الخيال، لم يعرف أحد عمرها، والتي كانت تتقن النظر معصوبة العينين وسرد أخبار الأمس كالغد دون إهمال أدق التفاصيل وأشدها تشعباً. ولقد كانت تحفظ الأسماء أيضاً، فمن قال كذا، ومن بدأ البكاء في حين كانت أمه لا تذكر الأسماء مطلقاً، فتضيعنا في ضمائر متصلة تظل تصفر وتطنّ غامضة غريبة حتى تحيلنا على أمه كالأطفال، فكانت أمه تحيلنا عليه هو الغائب بين الهضاب فوق فرسه يتبعه صديقاه أبداً.. سيد ليله.

لم نعد ندري الآن من قال وقتئذ إن المفتاح الوحيد لقلعة الميتات الغريبة كان قد ظهر ليلة موت أمه وداخل كلماتها المتصلة بحكايته بالذات، فأعدنا في التباس كلامنا حلقة سماعنا، وقد أحطنا بأمه،

Twitter: @alqareah

وكان وجهها كالعادة ممسوحاً بالبثور، أتت الى الدنيا بصحبتها في ليلة تأتي مرة كل أربع سنين. شفتاها بالكاد مبلولتان بريق، فما حبسه الفم. عيناها تخترقان أجسادنا ورائحة الحطب وجدران البيت الكبير والليل القابع خلف العتبة نحو تلال نائيات، تحدثنا عن سر موت أخيه منتحراً لما همس صوت: قتلنا الهمس الكاذب، أو ربما: ذبحتنا بأكاذيب لا تشبع عصفوراً، ثم سمعنا الباب يصفق بقوة والصوت يتابع في الخارج: أين أنت ونحن نموت؟ وكنا نغرق في الصمت القاتل إن الصراخ كان ينقلب في داخلنا خنجراً متعدد الشفرات، يمزق أصول حكايته، وقالت أخته إن أمه تعبة والوقت تأخر، فناولتها أمه نظرة رمح أن من علمك الكلام يا صغيرة، فقبعت في الزاوية بينما جف الريق عن الشفتين. غادرنا معاً دون همسة تائهين في فوضى شعاب انكشفت أمامنا دفعة واحدة لأننا كنا نلوي رقابنا دوماً كي لا نشاهدها، فترتمي معها في طاحونة منطقنا، فلا تخرج إلا طحيناً واحداً، تدفعنا كالأولاد نحو حكايته، هو أملنا للأبد، وتروي لنا التهابات ليله السحري.. هو محرك تاريخنا الشعري والبحر والقافية، تخيط أمام أعيننا جراباً لذخيرة بارودته المجرية ثم ترتق جواربه إذ انه قادم في الغد ليأخذها. كم هي قارسة ريح الجبل هذه الأيام! وكنا نصدقها لأننا كنا واثقين أنه من المستحيل أن تكون حكايته مع هذا الكم الهائل من الأخبار الحقيقية وسلاسل الموت المدونة عبر القرون مستحيلة وربما لأن أمه لم تكن تمنحنا الوقت لنفكر بأي شيء آخر سوى مغامرات حكايته المتعددة، لكننا غادرنا دون همسة، وكل في قرارة نفسه عرف أننا لن نعود ليلة غد ولا الليلة التي بعدها ولا بعدها وحتى موتنا كي نستمع الى أخبار ملفقة، أخباره، هو الذي لم يكن أبداً إلا

Twitter: @alqareah

إذا كنا نحن أيضاً مجرد أصوات هامسة تجوب تلافيق حكاياتها الى ما لا نهاية كي لا ينقطع همسها أو يجف ريقها فوق شفتيها، كي لا تكف عيناها عن تحديق متواصل الى وهم كانت تجعله يكبر ليلة بعد ليلة.. أي أنه كان وحده أملنا في البقاء.. أي أن رائحة الموت التي تلف ضيعتنا لن تتمزق أبداً ولن تذهب بها الرياح ولن يدفنها التراب إلا متى أحرقها هو بشرارات متتالية من حدقة بارودته المجرية هو الذي لن ينسانا أبداً لكننا غادرنا دون همسة مدركين أننا لن نرجع الى أمه أبداً متجاوزين طفولتنا لأن الهمس الغشاش كان يغذيها سراباً ويمنحنا بعض هواء أضحى يؤكد اقتراب موتنا وأخذنا نبتعد عن البيت الكبير عبر حقول قمح ممحية مخلفين أمه وراءنا مع أخته وذاتها ومع نار ذاوية. وللمرة الأولى انتابنا شعور بالحيرة المخيفة قبل أن نطرق أبواب بيوتنا، فماذا سنخبر أولادنا وأزواجنا من حكاياته الليلة، وكان الملجأ الأخير لنومهم، لكنهم كانوا هناك خلف الباب، استفاقوا على الدعسات الأليفة، انقضوا عليّ قبل أن أدخل، قربوا أنوفهم ليشتموا إن كانت رائحته في ثيابي، فأخرجت لهم كمشة بذار لقطين، وأخبرتهم حكاية بارودته، كما أخبرتهم حكاية هروبه عبر الهوة، أخبرتهم حكاية هجومه على قافلة صغيرة في وادي القرن، كيف أنه لما وجدها تخص مكارياً فقيراً بعث خلفها من يحرسها. لقد قررت أن أقول لهم انه مات، فأخذت أخبرهم حكاية فراره إذ كنا متشبثين بحكايته الى حد الكذب على أحبابنا بينما البرق يلمع في سماء خابية وينطفىء والنوم لا يقارب رموشنا أبداً، وفي النهار كنا نشير الى بعضنا بعضاً بنظرات ملتوية.. أي لا لن أذهب، ومثل طبعاً لن أسمع أخبارها الملفقة بعد الآن، وأنا أيضاً. وكنا متفقين على هذا، فما أن هبط

Twitter: @alqareah

الليـل إلا ووجدنا بعضنا بعضاً مصفوفين عند العتبة في الضوء الميت أمام بهو الاستقبال لنسمع حكاياتها للمرة الأخيرة ونعود عبر أشد الليالي برداً خلال أكثر الشعاب الصخرية خطورة علّنا نحظى بآثار حوافر حصان، له لون التراب.

كان لنا يومئذ ولع الطفولة الأجاج في اللحاق بآبائنا خفية وغزو بساتين التفاح رغم أن بساتيننا كانت تنام قربها. وكم مرة ساهمنا في غزو بستاننا دون أو مع علمنا، في صخب التنافس على الأرض. هذه الشجرة لنا. لا هذه لنا، بل لنا، حتى ننسى ما اختلفنا عليه أصلاً، ونتابع ركضنا عبر حقول لم نتصور وقتئذ أنها ستخلو إلا من رياح جراد سوداء، فكنا نركض نتسلق التلال نحو رأس النبع، ونبحث عند مخرج المياه عن بقايا عش عتيق أو بعض خصل تين وصـوف هي رائحة بطولات غابرة يوم قطع رجال البيك الماء عن حقولنا، فماجت ضيعتنا بالخير المهلك، فاجتمعنا في البيت الكبير ثم توجهنـا الى الهوة، والهوة هي تلك البقعة العميقة في النهر حيث الصخور الهائلة والاعصار الدائم، تنزل عبرها مياه النهر وتمشي في قنوات طبيعية حتى تخرج من رأس النبع، فلما وصلنا الى النهر ووجـدنا الهوة مغلقة بأكياس صوف عملاقة، لم نعد نعرف ماذا نفعـل، فالبيك كما اتضح لنا بعد أيام قليلة كان يتذمر من المياه الشحيحة. ذلك أن مزرعته كانت تقع أمام الهوة حيث تضعف مياه النهر من نهايات أيلول، وقال أحدنا إننا يجب أن نذهب الى البيك ونطلب منه حلاً، لكننا اندفعنا داخل المياه بثيابنا. هذا هو الحل. انتزعنا الأكياس العملاقة، ثم أخذناها معنا، ونشفنا الصوف فوق السطوح، وجعلنا منه فرشاً مريحة كي يعلم أننا بالصوف الذي

Twitter: @alqareah

أراد خنقنا به صنعنا فرشاً ننام عليها. هكذا قال جده. وكانت صباحات تموز النارية صباحات اعصارنا يجتاح البيدر فلا يهدأ حتى نشاهد الأبقار والحمير تدير الأخشاب الطويلة، تجرش سنابل القمح. وكم مرة سمح لنا أن نجلس فوق الأخشاب، ندور معها، ونهتف لحظنا الجميل. ولم نكن نعلم أن ثمة من يضحك لحظّه الجميل إذ انه كان يضطر في غيابنا الى حمل الأحجار من حقل قريب كي يثقل بها الأخشاب. كنا نشاهد القمح كيف يذرى في الهواء والسنابل تتطاير مهشمة، وكنا نطير صوب شجرة الجوز، وننظر من فوق أغصانها الى أخته تشبه أمه، تقطف أوراق العنب خضراء لماعة ثم تجلس تحت التعريشة في الظل، تلتفت باتجاهنا، فكنا نلتفت الى اليسار والى اليمين وننزل الى الأرض مسرعين، ونحن نحسب المسافة التي قطعتها: حتى تنزل عن سقف البيت الكبير على أغصان شجرة التين سنكون قد وصلنا الى الأرض، وكي تركض عبر حقل القمح. حتى تصل الى شجرة الجوز، سنكون قد وصلنا الى أقرب بيت. لا لم يكن بامكانها أن تلحق بنا، ولكننا كنا نتدافع خائفين، فنظن وقع أقدامنا وقع قدميها، وأشجار الدراق التي تلكزنا أياديها حتى نصفق الباب وراءنا ونحدق عبر شقوقه الخشبية، فلا نراها أبداً، ويكون بيننا من علقت قميصه بشجرة الجوز، فيصرخ بنا: يا جبناء! انها لا تزال على السقف، فكنا نخرج ملتفتين لنقول اننا سمعنا من يطلبنا في البيت أو اننا ذهبنا لنأكل إذ اننا لم نأكل منذ الصباح، فيأتينا الصوت من شجرة: جبناء! وننظر الى البيت الكبير، فنرى أخته تركض نحو شجرة التين وتقفز نحو الأرض عندئذ أرخينا لأرجلنا العنان. لم نفكر للحظة في كونها نزلت لأن أمه نادتها، وأقسمنا أننا لن ننظر اليها بعد ذلك أبداً،

Twitter: @alqareah

بشرفي، بحياتي، برحمة جدي، ونحن نسمع صوت الذي علق فوق الشجرة يبكي وقد مزق قميصه الأحمر تماماً وخيل اليه أنها وصلت اليه وأسنانها في ذراعه. كم كانت أمه تخيفنا، تخبرنا أنها تكره الصبيان وتأكلهم مثل الغول. لم نكن نتصور أن يوماً بارداً سيأتي، فيزين اصبع أخته خاتم ذهب، معصمها جوز أساور، ذهب صندوقها، محبس ذهب، وعقد ذهب، وصندوق خشب حفر، ويقدم لها البيك فرشة كاملة بلوازمها أيضاً مع تعليقة ذهب بسلسلة ذهب. امتلا البيت الكبير بالناس بينما يدخل محبس الذهب اصبعها، يربطها بالبيك، يفصلها عن أمه. كنا نحبس أنفاسنا، ونحدق في عيون بعضنا بعضاً، ونلتفت بلهفة نحو الباب عند كل صوت إذ كنا نتوقع دخوله في كل لحظة رغم الانكشارية المعسكرة عند أطراف المصبغة. وكنا ندخل غرفته مدعين أننا نريد أن نأتي بابريق ماء أو بمزيد من الشربات أو حتى التبول على المصطبة عله يكون قد تسلق السطح ليلاً وهو الآن ينزل شجرة التين، أو ربما اتى عبر حقول القمح زاحفاً أو ملتفاً بالسراب فوصل الى البيت الكبير. ولقد دخل اصبعها في المحبس الذهبي ولم يدخل أبداً. كنا نبلع ريقنا بصعوبة، وكنا نلوي رقابنا ونبتسم بينما نبارك أخته وصهره، وكانا يبادلاننا الابتسامة بمثلها.. ابتسامات جف زيت نارها مذ سيطر الصمت على ليلنا وسحبت الكآبة سراويلها فوق هوائنا لأنه كان بعيداً، وبعضنا ما عاد يصدق وجوده. والآن الرجال الذين كانوا يسافرون خلفه أحصنة متآلفة ما عادوا يسافرون خلفه أو قربه ليس لأنهم فقدوا أحصنتهم بل لأنهم فقدوا أرواحهم. وجدنا واحداً معلقاً بشجرة سنديان، رقبته تتشقق. وجدنا واحداً محشواً بالخردق لأن رائحة البارود فاحت منه وكادت تسمم قطيع

Twitter: @alqareah

الماعز الذي كان يرعى في الجوار، وجدناه مع رمح مغروز في ظهره، اخترق قلبه. وجدنا واحداً مع حربة بقرت بطنه وظلت معلقة بالبارودة التي تركت كشاهد. ودخل واحد الضيعة على متن حصان اجتاح الساحة كالريح، حرك الغبار عبر الحواري، صفن في دار البحص أمام البيت الكبير حيث كانت النسوة يخبزن العجين على الصاج، ورمى الحصان لاحداهن بابنها أيضاً، لكنه لم يكن هو بل أحد رفاقه. ولقد كان شعر رأسه وصدره ملوثين بالدم الذي سرعان ما بق. لا بد أنه قد أصيب قبل فترة، ظل مرمياً فوق ظهر الحصان تائهاً في البراري. وجدنا واحداً يطفو مع النهر. أقمنا جنازات قصيرة، ودفناهم على عجل إذ كنا نخاف مصائب أخرى قد تلحق بنا. ذلك أننا نعرف هؤلاء القتلى الذين يقلقون نوم الدولة العلية. قال لنا البيك دون أن يترجل عن فرسه، وابتعد يتبعه عشرون فارساً تركياً. أخبرنا البيك أنهم قد قبضوا عليه وعصابته، أرسلوه الى الاستانة متناسياً أو ناسياً ما كان قد قال لنا قبل أشهر قليلة.. أي أنهم امسكوا به يحاول الفرار الى جبال حوران، فأفرغوا في جسده ذخيرة خمس وأربعين بندقية ثم جروه عبر سهول البقاع وصولاً الى راشيا حتى ذاب جسده تماماً، فكوموا كتلة من عظام الوركين ومؤخرته الفاضلة، ونسفوها بمكيالي بارود وبرميل صغير، ووزعنا الشرابات، وباركنا أخته، وصهره ثانية، لكنه لم يدخل أبداً، وباركناهما ثالثة، وتمنينا لهما صحة وعافية، وبنين وبنات ورزقاً وماشية، ولم يدخل أبداً، ودرنا بالأباريق مشعشعة بماء صخرة الغدير على الناس واحداً واحداً، ولم يدخل أبداً. عندئذ لما أوشكنا على المغادرة سمعنا صراخ صبي وضعناه فوق السقف يراقب الطريق، وشاهدنا فرسه.. فرس الليل، متيمة أحصنة وادي القرن

Twitter: @alqareah

والبقاع والشمال والجبال الأبعد. كان صهيلها مثل الزغاريد. لما اقتربت من أخته مدت رأسها على مهل لتسقط رزماً من أغصان الورد البري قصت لتوها إذ قذفنا صوت بارودته المجرية الهازج في حيرة رائعة أرسلتنا في ضحكات مجلجلة أفزعت الخيالة المنتشرين حول ضيعتنا، جعلتهم يستعدون لانقضاض مخيف إذ إنه كان يتابع عرسه الصاخب.. عرسنا.. إذ إنه كان يخترق ليله الهائل.. ليلنا.. إذ إنه لم يكن ميتاً أبداً.

وخلال أمسياتنا المنذورة للحكايات أعدنا قدوم الفرس الى عرس أختــه، ولم نعـرف كيف أو لماذا دخلت أخبارنا أقبية وصباحات غابرة، فبدأ أحدنا كلاماً سخيفاً لا يجهله أحد من قبيل: أتذكرون لما قال أبوه لأمه أنا ذاهب الى حقلي وكانت على المصطبة الخلفية تغسل الثياب فنادته مودعة، قلْ حقلنا، فأعاد عبارته، حقلي، قل حقلنا، حقلي، حقلنا، حقلي، فأمسكت بقضيب رمان ملقى قربها. وقبل رمشة عين كانت خلفه، فتجنب الضربة الأولى بانحناء ماهر ثم جنح الى داخل البيت الكبير مستعملاً باب غرفته، فلحقت به وهي تزعق كالمجنونة، فأخبرها والعرق يملأ فمه، أبحث عن جزمتنا، لكن أحداً لم يصدق الحكاية، لقد حصلت بعد ليلتين من الزواج. يا للطرافة! فمن يملك المخيلة ليتصور أمه بوجهها الناشف والعابق بالبثـور تصرخ كمجنونة سيتصور طبعاً هكذا حكاية. يا للكذب التـافـه! لكني سمعت القصة بثقبي أذني من فم أمه ذاتها. يا للطرافة! في حين همس صوت بكلام قاله أبوه يوم انتحر أخوه.. أي ليلة الزواج الثـاني. جاء الجنـازة صباحاً بعض رجال البيك مع الغدارات والسيوف، فقال أبوه لهم: ليس عندي إلا بنت صغيرة

Twitter: @alqareah

وولدي مات أمس جوعاً. والله قال هذا، وليأخذ الرب أبنائي الخمسة إن كنت كاذباً. لقد بكت اليوم في عرسها كأنما نسيت ما قالت قبل أيام.. أي انه ليس لها إلا أخ واحد مات. هنا ذكر أحدنا حكاية من حكايات واسعة الخيال عقدتها لحظة هروبه إذ ان البيك بعد أن قبل اعتذاره وسمح له أن يروي حقله أرسل خلفه سبعة رجال، فأدركوه عند شجرة توت ينظر الى الحقول كيف تغمرها المياه ويوشك أن يدخل طقسه الليلي، فانقضوا عليه وأشبعوه ضرباً ثم ان أحدهم بعج بطنه بغصن مدبب الرأس، وساعده رفاقه، فأخذوا يمزقون أمعاءه بالغصن حتى التصقت كروشه بعباءته. عندئذ سمعوا صراخاً بعيداً، فركبهم فزع شديد، فدفعوه الى النهر. وهكذا فإن الجثة التي عثرنا عليها بينما بدات سحابات الجراد تبتعد لم تكن إلا جثته، ولكن ذلك كان جندياً تركياً أنا رأيته، وفي اللحظة ذاتها رتق صوت الثقب الخفي، فقلنا إن رجال البيك كانوا قد جلبوا معهم بزة جندي تركي فألبسوه إياها بعد أن خرجت روحه منه ثم رموه في الماء، ولكن بزة الجندي كانت مثقوبة في بطنها.. أي انه كان يلبسها قبل موته. يا ذكي يا ولد! كان ذلك امعاناً في التمويه. ولقد دوختنا الحكاية بينما اكتشفنا أنها لم تمت إلى واسعة الخيال بصلة إذ ان أمه أعادت سردها مراراً وتغييرها ونسجها من جديد. أتصدقون انني سمعت امرأة البيك تضحك من حكاياته وتقول له إنه إما أن يكون خدعة بذاته أو يكون ولدها هي لأن غبية كأمه لا يمكن أن تكون أمه وهو من هو؟ ومنذ تلك الحكاية لبست أخباره بريقاً غريباً هو بريقه ممتزجاً بادعاءات امرأة البيك الذي بعث رجالاً خلفه كي يقتلوه، فاستطاع أن يجردهم من سلاحهم، ولاحقهم بقضيب توت أخضر حتى رأس النبع ثم تركهم يركضون،

Twitter: @alqareah

لا أحد يلحق بهم، وراح الى الجبال وحده يحلم حلمه، الريح فرسه.

صرنا لا نعرف من يحب من ومن يكره من، صرنا نجهل من يحكي من ومن يقتل من ومن يتجنب من إذ بدا متشحاً بليل غامض أكثر من رعب العدو وأقلمن طمأنينتنا حين شرد حلمه الى وراء حلمنا أو هكذا ظننا، فلم يعد ممكناً تبين حدود طفولتنا أو منافذ سيرته الأولى إذ اختلطت أيام صباه المتقلبة بين البيت الكبير والحقل وصخرة الغدير حيث الصبايا يعبئن جرارهن مع ضحكات وغمزات مع ايام مغامرات لم نعلم من أمرها شيئاً إلا بعد أحاديث البيك الحاقدة عقب نفيه الى الاستانة أيام جنون غادر داخل قصر البيك ذاته بل داخل الاسطبل المقابل لدار البيك، وكلها اشاعات انفجرت على حين غرة مع حديث مشكوك في صحته حول خلاف شديد بين امرأة البيك والبيك وعزم امرأة البيك على العودة الى أهلها في راس بيروت، ولكن من كان يستطيع أن يعرف وجهه ذاته في صفحة ماء ذلك الزمن المغزول بالشك والجراد حتى حلت الاشاعات مكان الوصايا المخطوطة بالحبر الأسود وتوقيعات الشهود الكرام، وغابت مصداقية كوم الاحجار التي تحدد الأراضي والحقول خلف اتهامات متبادلة.. أي انه أزاح كوم الأحجار، بل هو فعل ذلك. كل هذا كي تكبر أرضه نصف شبر. غداً يضربه ربنا بشلل يكرسح ساقه التي دفشت الكومة حتى اضحى الأعرج سليماً والسليم أعرج حين التفتنا الى ضمائرنا مع صرخة دوت في ليلة ليلاء شجيرة توت، فإذا برجال يركضون ضاحكين كأنهم الجان والشياطين، يبدلون يبدلون امكنة الاحجار، يأخذون شبراً من تلك القطعة، يعطون شبرين لقطعة أخرى. هكذا إذن؟ ولقد كانوا رجال البيك، لكن بصرنا ضاع ثانيةً باشرت امرأة البيك أخبارها،

Twitter: @alqareah

فاضطرب سمعنا وانعقدت السنتنا. أخبرك هذا الكلام لك وحدك لأنك أفضل خادمة حصلت عليها منذ طفولتي. وكانت امرأة البيك تخبـر خادمتهـا هذا الكـلام وغيره، ومن يعلم ماذا تفعل أيضاً؟ اسمعي يا أحلى خادمة.. سأخبرك ماذا جرى في تلك الليلة لما فكر البيك أن ضبعاً قد سبعني وأخذني الى كهفه. ولقد كان ضبعاً حقاً، سيدتي، فعند العصر كانت الشمس تدخل من ذلك الباب وتغمر سريـري باحمرارها. سمعته يدخل، فظننته البيك لأنه وحده كان يخرج الى تلك المصطبة المرتفعة، سيدتي، وكيف لي أن أتصور أن أحـدهم سيتسلق شجرة الشربين ويصل الى المصطبة، سيدتي، كنت نصف نائمة إذ فتحت عيني فأبصرته يخلع طربوشه، وكانت الشمس الآتية وراءه تعميني، وأنا أظنه البيك، فهمست له: تعال، ورميت ثوب الريش عني. قبلني هنا، وفوق ركبتي، لصقي، سيدتي، لم أكن أعـرف سوى أنـه ليس زوجي، ولم أقـل شيئاً، لم اكن أستطيع التنفس. لا أعرف سوى أنني كنت أضيع وأضيع ثم انام وأنـام ثم فتحت عيني، فلمحتـه يقفـز، فخرجت خلفه، سيدتي، خطفني والشمس غابت والبيك راجع كعادته، فلمحته عند الباب. وكان وصل الى قرب الاسطبل، سيدتي، كان بمقدوري أن أصرخ ولم أفعل، سيدتي، هذه هي الحقيقة. وكنا نتوغل في براري لا شجر فيها ولا غيم حتى ارتفعت في آخر السماء حكاية أخرى لم تكن أكثر احتمـالاً إنمـا بدت مألوفة الى حد غريب بحيث صدقناها حرفاً بحرف، فهي أي امرأة البيك أخبرت الخادمة: الحقيقة هي أنني كعادتي نزلت الى الاسطبل لأتفرج على البقرات تتعشى، فلمحته بطرف عيني يختبىء خلف معلف فارغ من التبن، فخفت إن هو عرف أني رأيته أن يحصل لي منه أذى، فمشيت قرب موضعه دون

Twitter: @alqareah

ان انظر اليه، فسار قربي حتى كوم التبن. وكان الاسطبل خالياً إلا من بعض الخيول.. وإذا به قد زواني لجانبه، وأوقعني تحته، وقال: يا حبيبتي وقعت في خاطري وتمكن حبك من قلبي ومن ساعة رأيتك، فمه على فمي، وجعل يمص لساني، وأنا كذلك، وقال: أصحيح أنت قربي أم هذا منام؟ فقلت له: أنا سيدتك، فقال: وأنا عبدك. والله من يوم أن رأيتك ما لذّ لي نوم ولا طاب لي طعام، ثم جلس يحدثني وأنا مطرقة أتصنع الحياء إذ انني كنت صممت أن أدعه يخرج، فأصرخ للرجال، فيقبضون عليه، سيدتي، ولكن ما جرى أنه اضجعني، فخفت إن مانعت أن يحصل لي أذى منه، فنمنا، ونمت معه الى الصباح، فوالله ما رأيت عمري مثل تلك الليلة حراً حتى أن التبن اصبح يقطر عرقاً كانما غمس في النهر ثم انه خمش وجهي وظهري ونتف شعري، وقال: قولي لزوجك إن ضبعاً سبعك.. أتى واخذك على ظهره في المساء، فلم تدري إلا والفجر أتى وأنت تائهة في البراري حتى وصلت الى الاسطبل فسقطت قرب بابه، فتصنعت الموافقة وقلت: لا يحصل إلا هذا، وأنا لا أزال عازمة على الصراخ كي يمسكوا به، سيدتي، لكنه انهال عليّ ضرباً، وأخذ يحشو فمي تبناً، وقال: هذا كي أضمن فراري وكي تفعلي كما أخبرتك وتكوني هنا غداً في مثل هذا الوقت، ولقد قالت امرأة البيك إن ذلك حصل في الليلة السابعة والعشرين بعد ليلة فراره. ولقد مضت شهور ثقيلة دون أن نعرف له موضعاً أو خبراً يقيناً حتى وصل مكارٍ الى ضيعة تبعد عنا مسيرة ثلاثة أيام وحكى وقال ان في وادي القرن عصابة يتزعمها فارس بطول الباب وانه قطع الطريق على قافلته، فصرخ المكاري مستجيراً به دون أن يعرف أنه هو نفسه الواقف في وجهه، فسأله من أين اتيت. فلما أخبره ارتعش صوته وقال: اذهب في أمان

Twitter: @alqareah

الله، لا يقطع عليك أحد درباً. وأخبرنا المكاري أن ثلة من الفرسان كانت تحرسه من بعيد في مناطق الخطر، وقال مكارٍ آخر انهم عصابة من ثلاثين رجلاً يجولون في السهول اليابسة بين وادي القرن وجبال حوران، لا يعرف لهم معسكر منذ أن انطلقت فرق الخيالة التركية خلفهم بعد أن سطوا على قافلة ذخيرة وجندلوا حراسها. ولقد حلف أحد المكارين بدماء أجداده وعلى تراب ولده الذي مات جوعاً أن العصابة هاجمته ذلك العصر الساخن ثم أطلقته بعد أن سرقت نصف بضاعته، وقال إن ذلك كان كما تعرفون قبل نهار من ربطه خيله في اسطبل البيت مما أضاف احتمالات فريدة لم تخطر لنا على بال. وعلى حين غرة اختفت احدى الصبايا كأنما السماء لحستها إذ ان صبايا حي الكروم انطلقن كعادتهن عند العصر يعبئن الجرار عند صخرة الغدير، فلما وصلن الى الصخرة، أغرقن جرارهن في الماء، فتذكرت احداهن حكاية تزحزح الصخرة إذ ان أخاه كان مولعاً باحداهن، وكان يأتي الغدير، ويختبىء خلف الصخرة حتى يصلن، فيغني لها: عشق الفجر البارد يريد سخونة تشعله، حتى تقول: من أين يأتي هذا الصوت القبيح، فيقول: من وراء الصخرة، فيصرخن معاً: كذاب، ذلك أن الصخرة كانت تلتصق بجدار الحقل القريب بحيث اننا أيام طفولتنا لم يكن بمقدورنا الاختباء خلفها. وذات صباح بينما يقلن له: يا كذاب يا جبان، دفع الصخرة بيديه، هز مياه الغدير وخرج اليهن، فتصايحن هاربات: جني جني خرج من الصخرة.. الغدير، وكان يضحك والدمع في عينيه، لكنه هدأ دفعة واحدة إذ شاهدها عائدة صوبه، وكانت تهمس: يا أمنا العذراء، إذ انه كان يفوق الصخرة حجماً، يا أمنا العذراء.. إذ انها كانت تذهب الى الكنيسة

Twitter: @alqareah

دوماً لتشاهدها. يا أمنا العذراء.. إذ ان امرأة لم تكن قد شاهدته من قبل يا أمنا العذراء سوى أمه وأخته طبعاً وعمته وأخرى ربما. يا امنا العذراء.. إذ انها تحضن الصليب المتدلي الى فوق سرتها. يا امنا العذراء.. إذ ان أخاه كان قد بدأ يغني لها أغنية هو الذي كان يشذب أشجار التفاح آبان ذلك ويفكر في أن الوقت آن. يا أمنا العذراء، فهي لم تكن تتصور أبداً بينما تدنو من أخيه في احتمال موت ما بعد شهر ما في قبو ما مذكور في وصية ما قرب قشر بيض ساخن. يا أمنا العذراء، ولم تكن تتصور أبداً احتمال مجيئها الى صخرة الغدير في ذلك العصر.. عصر أن اختفت، كي تتذكر صاحباتها تلك الحادثة، ويغرقن في الذكرى، فتغافلهن وتختفي دون أن يقع أحد على أثر لها أم هل كانت تتصور ذلك؟ يا أمنا العذراء، أتكون قد تجاوزت أسرار النبوة الممكنة فتكهنت بفراره عقب انتحار أخيه. ربما كانت خلفه الآن، هو الذي أحب أخاه أكثر من نفسه، لكن أخاه لم يفاتحه بجدية غرامه، فظن خلافه وأباه أمراً صبيانياً لا يلبث أن يزول. ولو عرف لكان وقف في وجه أبيه، لكن من ذا يعلم سوى الرب الذي كان يراقب مسلكه عبر الجبال ويجعل شيخ الخلوة يباركه؟ أولم ينبت أمام أعدائه أشجار الشوك والصبار، ويشعل القمر أمام خطاه حين انشطر الليل خلفه خيولاً تتشظى من خلف التلال وعلى صهواتها فرسان على صدورهم ألف حرز، يلمعون مثل سيفه؟

ليلة عرس أخته لما تقرر أن تجعل غرفة أمه ليلة الزواج الأولى، تنفست خالته الصعداء إذ انها كانت تشارك أخته كراهيتها لمنظر البيت الكبير غارقاً بالصمت مزنراً بالأقفال. لن أقبل أن أترك البيت. وكاد صهره ألا يصير صهره، الزواج كالممات قسمة

Twitter: @alqareah

ونصيب، وبـدل العـرس جنازة، فضمتهما غرفة مغمسة برائحة الخزامى التي كانت تلتصق بأمه في يقظتها ونومها، لم يكن وزنها لما حملنا التابوت، لكنه وزن الرائحة. وحين انطفأ فقط القنديل بعد أن ضجرنا من الانتظار وسمعنا همساتنا الضاحكة تبينت أعيننا أشباحاً واهية. هذه الخطى كأنما حصان يخب على السطح. لقد كان فرسه، بل كان راجلاً، رأيته على حصان بني، خلفه دزينة رجال يتجهون الى المصطبة الخلفية، لكن الصوت كان بعيداً، فكان من الوادي كأنما من بئر مغلقة، من الخلوة. وقبل أن نتدارك أمراً مغرياً كالحديث عن الخلوة، وجدنا أولادنا يسقطون في دوامة لا شبيه لها إلا دوامات واسعة الخيال إذ اننا ما عدنا نسمع أحاديثهم السرية أبداً، وما عدنا نعرف أي بستان يقصدون أبداً. لم ينزلوا الوادي. لم يذهبوا الى البيدر اليوم. لا أظننا سنرى منهم شيئاً حتى المساء. ذلك أننا كنا نغادر الأسرة مع الفجر، فنتلاقى قرب صخرة الجن عند الغدير متجنبين الظهور في الساحة أو الاقتراب من البيدر كي لا نسقط في مصيدة الغداء أو الاغتسال المقرف، فنلتف حول بيوت الضيعة متسللين عبر كروم العنب حتى نصل إلى التلال، فكنا نزحف على مهل على غير عادة حتى نبلغ أشجار التين الست. كانت الخلوة محجوبة بالظل، غارقة في الهيبة والجلال حيث العصافير تحوم دون صوت، والفئران تزحف دون حفيف البطون. الأمر الذي كان يمنعنا من تصور وجود أي كائن في داخلها، لا إنسان ولا حيوان ،فكيف بشيخ؟ وهكذا يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع. وكنا نراقب الخلوة دون أن نتجرأ على تجاوز أشجار التين أو نتبادل الهمس حتى انتهاء الأسبوع الخامس لما قفزنا فوق حواجز نومنا الغامض، تحذيرات الأماسي، أشجار التين الست، جلال الهدوء

Twitter: @alqareah

المخيف، فدخلنا الفسحة حيث عيدان قصب يابسة لا تزال مغروسة في أرض مطلية بشوك مأكول، وارتعشت ركبنا، ندوس البلاطات الممددة أمام باب الخلوة أو هكذا حسبنا اذ ان البلاطات اخذت تتزحزح تحت أقدامنا، وقرقعت احداها متكسرة، فسرقنا طيش السنونو نتدافع وأشجار التل الى البيدر مباشرة دون التفافات.. دون طرق طويلة ثم شجرة الجوز الكبيرة نمرق قربها دون أن نلمحها، ونلج أقرب بيت الى أمان اللحظة المضطرب، ونرتج الباب بعنف وننتظر حتى اكتشفنا ثيابنا الممزقة. قلوبنا تدق بصخب اجاب عن كل الأسئلة. ذراعي مجروح أماه. رجلي تؤلمني. من فتح الشباك؟ أماه هل رتجت الباب جيداً؟ وهكذا كنا نمضي ليالي طويلة لا يغمض لنا جفن، رائحتنا رائحة براز إذ كنا نعرف أن شيخ الخلوة لن يتركنا في سلام إذ اننا تصرفنا كأولاد مشاغبين، فأزعجنا صلاته، وقذفنا تأمله بحصى تطفلنا حتى رجع الى أرجلنا دم الجرأة من الغد، والجبان من يظل في بيته مختبئاً كالبنات، ولقد كنا أكثر حذراً هذه المرة، فحملنا البلاطات المكسرة جانباً ومشينا على رؤوس الأصابع فوق خيوط التراب، وصلنا الى الباب، فلم نجد باباً، كله حائط، حجارة فوق حجارة. غير معقول! فليأكلني الجراد إن كنت كاذباً. ولم نفهم شيئاً حتى لامست آذاننا المخدات، فاكتشفنا الحقيقة الرهيبة.. اي انه مسجون في الداخل. وهذا ما يفسر عدم وجود باب، ويفسر أيضاً خوف أمهاتنا منه: هذا كي لا يغضب منا، هذه كي يمنحنا رضاه.. حينما كن يذهبن اليه قبل مجيء الجراد بأرغفة خبز ساخنة أو سلة عنب وتين. ولقد اتفقنا على اخراجه، فلم نعلم أبداً من خان عهدنا وأفشى سرنا إذ اجتمعوا ليضحكوا علينا في الصباح. يا ولدي يسكن شيخ الخلوة في الخلوة لأنه يريد أن

Twitter: @alqareah

يسكن في الخلوة، فهناك يختلي بربه. لماذا نسجنه؟ انه يستطيع أن يذهب أينما يشاء، ولكن أين الباب؟ فذهبنا وراء الخلوة حتى وصلنا إلى المنحدر. انظر هذا حقلنا. نحن فوق الوادي. ما هذا المكان؟ أريناهم الباب الذي كان مفتوحاً دوماً غير أنهم كانوا يظنون أنه في الجهة المقابلة، لكن أين هو؟ فأخبرناهم أنه لا ريب ذهب يمشي بين الحقول، فالأولياء يحبون هذه الأشياء، ولم نعرف أصدقوا ذلك أم لا لأنهم كانوا مسحوبين من آذانهم نحو دهشة مررنا بها قبلهم أمام منظر الوادي تحتنا، رأس النبع تحتنا. وحدها السماء كانت فوقنا حينئذ. وهمّ أحدنا بدخول الخلوة، لكنه عاد مذهولاً. انظروا آثار حوافر. ولقد كانت حوافر حصانه.

ما إن جزمنا بكون تلك الحفر هي آثار حصانه حتى ظهر أن كرامات شيخ الخلوة قد زادت واحدة إذ ان آثار الحصان اختفت تماماً عند العتبة، فإن لم يكن الحصان قد استدار ولا آثار لأحد جره ميتاً، ومن المستحيل أن يكون قد رجع متبعاً الخطى ذاتها، فأين اختفى؟ لا بد أن شيخ الخلوة جعله يطير. أولم يكن يترك الباب مفتوحاً على مر السنين فتزوره الذئاب ووحوش الغابة والضباع كي تأكل من يديه حتى يسرحها في الفجر؟ أولم يكن يقضي ليله جالساً يصلي دون نوم أو شراب؟ أقسم انني رأيته يرفع يده كأنما يبعد الهواء، وان ذلك كان قبيل موت أخيه. أتقول انه هو من أبعد الجراد ومن غيره؟ لكن أحداً منا لم يصدق ذلك، أضف الى ذلك أن الجراد كان سيرحل آجلاً أم عاجلاً كي لا يموت جوعاً، لكننا لم نكن نعرف إن كان ميتاً او حياً منذ نسينا وجوده في الخلوة مع قدوم الجراد. لا بد أن الوحوش أكلته. الحيوان لا يأكل الولي. ربما لم يعرف الضبع أنه ولي. حتى أيقنا أن الأولاد قد اجتاحوا الخلوة،

Twitter: @alqareah

فعبثوا بكتب الحكمة الستة، مزقوا أوراق الأشعار، مفاتيح الصلاة المقدسة، فطارت عقولنا. أية لعنة! ولم يكن ثمة عاصفة يمكن أن تنقذهم. أية لعنة! لا لا بكاء ولا صراخ ولا رجاء إذ يجب أن يلقنوا درساً، لكن البيك جاء البيت الكبير يصحبه تسعة رجال وامرأته، فتناسينا العقاب واللعنة، وتحلقنا قرب المدخل الرئيسي. مبروك للجميع. جاء يهنئنا إذن! وكانت جزمة البيك تلامس العتبة ورجاله التسعة وراءه وقد أصبح رأسه داخل البيت الكبير تقريباً وصهره يصافح امرأة البيك ويرحب بالبيك. بدأ البيك يتنشق هواء البيت الكبير. لقد دخل البيك البيت الكبير، ولم تكن أخته قد ظهرت بعد، أية لعنة! عندئذ بينما النساء يكلمن امرأته انطلقت صرخة حادة: لقد اختفت. ولم يكن البيك قد دخل بعد، كان موشكاً على الدخول حينما دوت الصرخة، فاكتشف اختفاء امرأته، فالتفت مذعوراً يبحث عن رجاله، فلم يجد أحداً. وقفز الى حصانه، لكن حصانه ذاب في الهواء، صرخ يستغيث بنا، لكنه بدا كأنه لا يرانا. أين أنتم؟ أين ترحلون جميعاً؟ عندئذ ظهرت الفرس، فرسه خرجت من قبو ما، أرسلت صهيلاً حاداً. هو على صهوتها. ركض البيك نحو النهر. كان النهر يبتعد شمالاً، والبيك يصرخ: أين تذهب ولماذا لا تنتظرني؟ والفرس تدور كظله، فلا يعرف كيف يخلصه من تحت حوافرها حين تبدي النهر امرأة متذمرة، وانقدحت تهليلات طويلة. فلقد عاد حقاً يلفه الظلام، اقترب من القبو، وطرق الباب ثم ترك حصانه مربوطاً بعمود التعريشة، وسار نحو المدخل الرئيسي، الجراد يخشّ تحت جزمته، فرفع يده في الهواء، فدخل الدار سبعة رجال خلفهم البغال محملة بأكياس قمح. ولم تسمع أي صوت لكنها أحست به. وحينئذ شوهد يعبر قرب صخرة الغدير، فانطلق الخبر. ولم تمرق ثوان حتى

Twitter: @alqareah

كنا عند المصطبة الخلفية، وكنا ندرك أنه هو، وأنه قد جلب لنا القمح كي لا نموت بشكل مجنح في الثقة، فكدنا نخلع باب غرفته، لكن أمه رفعت المزاليج. وقالت لنا إننا مجانين وإنه ينام في بطن ضبع ما في كهف ما، لكننا دفعناها جانباً، وتوجهنا مباشرة نحو بهو الاستقبال، فوجدناها هناك تماماً كما توقعنا تلالاً ضخمة من الطحين وغبارها يسد المدخل الرئيسي المشرع على الدار وأقفال مهشمة في حين كانت نسائم رطبة تلاحق حصانه. لا ريب أنه يقطع النهر الآن، ينطلق في سهول البقاع، وسيصل الى الجبال ويستعد لأنه أبداً لن يترك ضيعته للجراد والنسيان، ولن يخضع لأحلام أمه المجنونة في أن يلتهمه الضبع بدءاً من مؤخرته بينما ستهوي أخته عن السطح فيثقبها عمود الحديد الذي يسند التعريشة وتبقى أمه وحيدة في البيت الكبير حتى يرجع اليها طفلاً جميلاً فتباركه ثم تسرح شعره وشعرها وتقع ميتة. لأنه هكذا مفروض، هكذا اقتضت حكايتها حفيدة واسعة الخيال كما أخبرتنا. لأنه هكذا مفروض، فتكتمل دائرة الميتات الغريبة التي تحكم حياة هذه السلالة. لأنه هكذا مفروض، هكذا سيولد وحده ثانية في ضيعتنا، فيتذكر حياته الماضية وبقرار من أمه يرث البيت الكبير. لأنه هكذا مفروض، لأنه وحده تمرد على القوانين التي تحكم تاريخ البيت الكبيرة.. أي الخضوع للجد ثم الخضوع للجد ثم الخضوع للجد. لأنه هكذا مفروض، وعندئذٍ لما يعود طفلاً وتباركه ستتمكن من الإفلات، وشهقتها المفضلة: اللعنة على هذه الدنيا الفانية! وهي عبارة عمته أيضاً. ومن أخبرها أنه خرج على قوانين تاريخ هذه السلالة، فربما كان ذلك طبيعياً، وكنا نضحك من نقاشنا يناقش نقاشاً لا يناقش لأنه لم يقع أبداً. علق ذو نبرة ذكية بينما ارتجف كل غصن ثانية

Twitter: @alqareah

إذ أتى من يخبرنا أن امرأة البيك وجدت منفوشة الشعر، ممزقة الثيـاب بين أشجـار الشربـين خلف الاسطبل، وأن البيك يهذي كالمحموم، ويقسم بجده وأبيه وماشيته وربه أنه سيشرب دم الكلب. الوحش الجبان يمارس فروسيته على النساء. ولقد كان يقصده هو، ولقـد كان يهـذي حقاً، فمن ذا يقترب منها تلك البشعة ومن هو المجنـون كفـايـة ليصـدق أنه سيجازف بحياته قاطعاً السهول متجاوزاً الجند والتلال كي ينام فوقها وهو الذي يقدر بإشارة من يده أن يجعلهـا تطير اليه، هو الذي لم يطلب مثلها أبداً ولا مثل غيرها، يكفيه سيفه وفرسه وتوكله على ربه، لأننا معه حتى القيامة.

حينمـا علا صياح الديك على هذيان البيك استعدنا أنفاسنا وأخذنا نكرر نشيد الحزن ذاته.. نشيد العزاء الكاذب ذاته.. نشيد الشمـاتة السرية ذاته. ذلك أننا لم نصدق ولو لهنيهة حمقاء أن شيئاً قد يحصل لامرأة البيك دون رضاها، وربما لأننا كنا غارقين في عبث تلك الحكـاية التي قفزت. لا أحد يعلم أين. ربما جلبها حديث صبيـاني يقترح اختطاف رجال البيك ثم اختطاف امرأة البيك، فجلبنا كرامات الليل مع كراماته، وأخذنا من البيك كل شيء. حتى الحصان أخذناه، هو فخر الفروسية إذ انه كان قدم للبيك هدية من والي الشام شخصياً. ودخلت الخادمة والعيون تصفر من عينيهـا كي تستقبلنا ثم تصرفنا مشكورين، ولكن البيك لا يريد ازعاجاً، بتلك اللهجة المتعالية التي تهجر لسانها ما إن تعود الى الضيعة، لكن من ذا يأبه سوى زوجها؟ ربما إذ اننا لم نكن نهتم إلا بالأخبار تنقلها اليها من داخل مملكة البيك لأن امرأة البيك كانت بموهبة واسعة الخيال تسرد على الخادمة كل الحكايات إلا إذا كانت الخـادمـة تفـوق واسعة الخيال موهبة هـي الماهرة في طبخ

Twitter: @algareah

البطاطا المحشوة أكثر من خالته ذاتها، وكذلك القرع والباذنجان. ذلك أن البيك كان يفضل هذا اللون من الطعام على لحم العجل المشوي مع البندورة والبصل المفضل، فكنا نتذكر الآن، نتحوم عند صخرة الغدير وقد بدأت الضفادع أناشيدها منتظرين قدوم الخادمة كي تخبرنا، فأتى منتصف الليل والخادمة لم تخرج. يبدو أنها ستقضي ليلتها عند البيك. ماذا، أقصد، وتسللنا خلال ضحكاتنا كل نحو بيته وسهرنا حتى الفجر نمارس لذة التكهن بما سوف تقول الخادمة عند الصباح. لقد ذهبت أبعد من هذا أيضاً، فتكهنت بتعليقاتنا حول حديثنا، ذهبت أبعد من هذا أيضاً، فتكهنت بتعليقاتنا حول تعليقاتنا، اللعنة! دعوها تكمل. وكانت تبتسم، وترسل سعلة تشبه سعلة أمه. ذلك أنها كانت أختها بالرضاعة كما أخبرتنا خالته وجدها أحد رجال البيك مرمية على بطنها بين أشجار الشربين. ماذا قالت؟ مخملها وهو يصرخ. ماذا قالت؟ أضجعناها في غرفة الجلوس. هل قالت من كان؟ دعوها تكمل. أخبرتنا ما حصل وهي ترتعش باكية، وكان البيك ينتف شعره، ورجاله يسرجون الأحصنة بينما أخذت أرش صدرها بماء الزهر. أدخلي في الموضوع يا امرأة. عندئذ توقفت عن الكلام، وجعلت تدور بعنقها كالبومة، وتثبت شفتيها أمامنا واحداً واحداً حتى التصقت شفاهنا بعضها ببعض، فأرسلت سعلة طويلة، وتابعت سردها: على تراب أبي أحلف أنني حلمت بهذا البارحة. كذاب يا كلب! إذ أرسل نوراً مرعباً فأسرعنا صوبه لنجد رأس خنجر مكسور وقد انغرز في خاصرته. أفلت السكة بسرعة. أمسكه جيداً. انتبه.. سوف ينطحك. رماني كريشة. ولكن عبثاً. كانت حكايات بسيطة مثل ثور ينطح أو حمار يرفس أو حائط يهوي تجرب

Twitter: @alqareah

ان ترتفـع فوق حكـاية امرأة البيك إذ اننا كنا نتحدث في شرقي الضيعـة، فيسـأل أحدهم عن تفصيل ما مثل هل كانت تنورتها ممـزقة، فيجيبه واحد غربي الضيعة: لا أبداً.. أو تهمس واحدة بينمـا تغسل منديلها: ترى أضربها كثيراً؟ فتجيبها امرأة تقطف التفاح في الوادي: لا لم يفعل، إذ إن شيئاً كهذا لم يكن قد حصل أبداً في ضيعتنا، فكان أي حرف يجد لنفسه موضعاً. وهكذا قالت امرأة البيك انها كعادتها كانت تمشي بين أشجار الشربين كي لا تسمع صهيل الخيل المزعج وهي تلتهم تفاحة، فلما وصلت الى قرب المقعـد الحجري، شعرت بكف ضخمة تقبض على عنقها. وقعت تحتـه، فلم أدرِ كيف تمكن مني وأدخـل أصابعه، خمش بطني، اتقصد أنه..؟ ولكنها كانت تجهش بالبكاء عوضاً عن شرح كلامها الغامض المتقطع. نامي يا طفلتي نامي. قال البيك لها ثم وضع يدها في حضنه وغفا حيث هو راكعاً قرب الفراش. ولقد أغمض عينيه، واخـذت أنامله تنقر فخذه كأنما يسمعها تفسر له أحلامه إذ ان البيـك كان يستيقظ فجراً فيهزّ امرأته ويقول لها: رأيت الكواكب كلهـا. ماذا سيحصل؟ قالت: المجلس ضيق لكن سأخبرك. وأما الكـواكب فسبعـة هي الشمس، القمـر، عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، وزحل، فالشمس حارة يابسة قاسية بالمقارنة، سعيدة بالنـظر، تمكث في كل برج ثلاثين يوماً. والقمر بارد رطب سعيد، يمكث في كل برج يومـين وثلث يوم، وعـطارد ممتـزج، سعـد مع السعود، نحس مع النحوس، ويمكث في كل برج سبعة عشر يوماً ونصف يوم. والزهرة معتدلة سعيدة، تمكث في كل برج من البروج خمسة وعشرين يوماً، والمريخ نحس. هل رأيت المريخ يا حبيبي؟ لا أعرف. لم أفهم شيئاً. ولا أنا. كانت تهمس، فلم يكن يسمعها إذ أن

Twitter: @alqareah

طبلة أذنــه اليسرى كانت مثقوبة منذ طفولته، رأيت نفسي أهذي أقــول هذه الليلة الثامنة والأربعون والأربعمائة منذ فراره، فلما النهار ثلاثاء، قالت من أجل المريخ. ويدل ذلك على موت كبار الناس وكثــرة الفناء وإراقة الدماء والغلاء من الحب وقلة الأمطار، وأن يكون السمك قليلاً ويزيد في أيام وينقص في أيام، ويرخص العسل والعدس ويغلو بذر الكتان في تلك السنة، وفيها يفلح الشعير دون سائر الحبوب، ويكثر القتال بين الملوك، ويكثر الموت بالدم، ويكثر موت الحمــير، والله أعلم. ولكن ماذا سيحصل لي؟ فكانت تتركه وتعود الى نومها. كيف تعرف هذه الأشياء؟ الله أعلم، لكن يقال إن جدتها من بغداد، وانها من سلالة واسعة الخيال. اللعنة! ما هذه السلالة؟ أتكون قد اخترعت كل الحكاية؟ والحق اننا لم نكن تائهين تماماً، لكننا كنا نتمتع بفوضى خطواتنا مثلما كنا نفعل قبل زمن بعيد حين كنا ندوس العنب في البرك كي نأكل دبساً. ذلك أن وضع القدم في العصير الموحل يشبه السقوط فوق أخبار متعاكسة. علق ذو نبرة ذكيــة.. بينمــا بوشر في تحقيق شيء ما. وكــان ذلك بعد أن دخل حصانه البيت الكبير محملاً بالورد لأخته إذ اني رأيته يغادر في الغبــار، فلحقت به عبــر البيــدر. كان كضربــة ريح متوجهاً نحو شجــرات التين، فاخترقها كالضوء وأرسل صهيلاً متقطعاً ما إن داس البــلاطات المحــطمة. عندئذ لمحته. كان هو. قفز عن سقف الخلوة. امتطى عرش فرسه وانحدر بها نحو الوادي. مستحيل. لا أحــد ينــزل ذلك المنحدر ويظل حياً. بالفعل. ولقد ركضت حول الخلوة كي أرى أين صار، فرايته يعبر راس النبع. وقرب توتة هائلة لم المحهــا من قبــل. رفــع بارودته المجرية، أطلق النار. ظهر من الحقــول سبعة فرسان، وأخذوا يبتعدون نحو جبال. بدوا كفرقة

Twitter: @alqareah

مردة. دعنا من وصفك وقل ما حصل. اختفوا في المسافة، وكان هو آخر من اختفى.

عندما علمنا أن الأتراك توزعوا على الجبال المحيطة وسيّروا دوريات منتظمة بين وادي القرن وضيعتنا، اتضح للبيك أن الذي فعل ما فعل بامرأته لم يكن ضبع الكروم، وقد استعادته في صباحات رعبنا الطفولي خالته إذ انه سبعها مرة وذهب بها الى اطلال موغلة في الزمن والمسافة شمالي ضيعتنا حيث كان ثمة كروم عنب نشيطة، ولم تلبث أن خمدت لوعورة الطريق، لأننا كنا نقطع رأس الأفعى، فينبت لها رأسان لأن الذئاب كانت تنمو هناك أكثر من العنب، لأن الضبع كان يميت قاطفات العنب رعباً. وكانت خالته تقطف بعض أوراق العنب، فأزاحت قضيباً أخضر. ومدت يدها. عنقود خشن. فكرت. كان ذلك رأس الضبع في كفها. لم يتحرك. كان يحدق في عيني. وكانت امه تسرح شعرها المنفوش وتمسح وجهها بخرقة مبللة بماء الزهر. لا بأس أختاه لا بأس. لكن خالته كانت تزداد خوفاً كلما أمه كلمتها. اخذها على ظهره عصراً. وفجأة يأتي الليل. ووجدت نفسي عند الردم فوق الكروم. وحين سقطت أرضاً انغرز ألف ظفر في ظهري. ولقد أحس البيك بفظاعة المصاب حين دخل زريبة الماشية فوجد أكبر بقراته مبطوحة على جنبها، ضرعها مثقوب بأنياب لم تجد حليباً، بطنها مبقور بأنياب وجدت دماً. ووراء معلف مقلوب اكتشف عجلاً صغيراً وقد فقد رأسه. يا للهول! وأسرع البيك الى الاسطبل، فلم يجد أكياس القمح بل غبار غيابها. إنه هو. وحين عادت الخادمة في المساء أعلنت شفاء امرأة البيك. لقد كان ذلك ضبعاً حقاً. وقالت ان امرأة البيك استعادت هدوءها، وانها تنتظر زيارته الليلية لأنه يموت شوقاً اليها. الكاذبة. لأنه

Twitter: @alqareah

سيمـزق الغـابات كي يأتي لها برأس الضبع. الكاذبة. لأنه قد يسمح للذئاب بنهش أخته وابتلاع أمه، لكنه سيقطع الأنهار من أجـل دفع نحلة من أمام أنفها. الكاذبة. وأما هذيانها الغجري، فكـان يصف نزول فرســه فوق سطح غرفة نومها، ثم استدرت، فرأيت أمامي جبلاً من اللحم والدم. الكاذبة. فهو ليس بالطويل ولا بالعريض، لا بد أنها سمعت عن أخيه ومزجت بينهما. أصبح البيك يأخذ امرأته عند كل عصر مع كل رجاله الى صخرة الغدير كي يعود وجههـا أحمر كالورد وأطرافها ساخنة كالزيت. رأيتهم يزحزحون الصخـرة التسعـة معـاً ثم كل رجال البيك ثم والبيك معهم، فلم يحركوها إلا شبراً، لكن ذلك كان كافياً كي يمدوا رؤوسهم خلفها ويـروا تجـويفهـا ذا السمعة الخارقة، وإذا بجني خرج لهم في اللحظة ذاتها، فلم يره أحد لأنه أخفى نفسه ومشى خلالهم حتى وصل الى امرأة البيك، فسقط يقبل قدمي، ويحلف لي مرتعشاً أنه قد أرسله إلي كي يبلغني حبه الملتهب بجمر البسمة على شفتي، برائحـة العـرق الســائلة على خصري، بصــوت آهات وحدتي في الأماسي المثلجة، وقال انه سينتظرني في الغد قرب الاسطبل. فلما نهضت فجـراً، وجدت فخذ البيك فوق ردفي، فسحبت نفسها من تحته، فطوقها بذراعه، فدفعت ذراعه عنها، وانسلت نحو الباب. لا بد أن ذلك حصل في ذات اللحظة التي وجدنا فيها أكياس القمح إذ ان أولادنا غافلونا مع الفجر الى الخلوة، فوجدوا كيس قمح ممزقاً فوق جب شوك يابس، فحفـروا التــراب، وانتزعوه من جذوره ثم جمعـوا حفن الطحـين من أرجـاء الفسحة ومن تحت البلاطات، ورقعـوا الكيس بقمصانهم، واستعدوا لحمله حين سمعوا صوتاً داخل الخلوة. غير معقول. فلقد كانت الخلوة طافحة بغبار الطحين،

Twitter: @alqareah

وكانت آثار فرسه مرسومة فوق الغبار. وكان بامكاننا أن نتوقع أن ملاحقة تلك الآثار ستقودنا الى قصر البيك والى الاسطبل بالذات رغم انها كانت تقودنا الى الوادي. وللمرة الأولى رأينا خنجراً من خناجره.

حين عدنا راكضين بعد أن رمينا المعاول قرب خيم مبعثرة عبر الحقول عمرناها بالوزال والقصب وأغصان الملول والسنديان، بعد ان شربنا آخر قطرات الماء في الجرار وأشبعنا أشجار التفاح عرقاً ودلالاً، بعد أن تقرحت أيدينا وأوشكت القروح أن تندمل، بعد أن شتمنا أولادنا وضربناهم، وبعد أن انخرطنا في موجات ضحك حول ضباع منقرضة وحول قمح يطير، غرقنا في طاعون النقاش المتفشي حول ميتات عادية وخطو خافت في العتمة أو آثار حوافر تركض إلى الخلف وإلى الأمام. ربما حين جعلنا أقدام الذاكرة تخلع جزمها قرب نهر البدء، اكتشفنا أن الطالع من الصخرة كان جنياً، وأن القتيل المبعوج البطن يطفو مع النهر في الهوة كي يصل الى رأس النبع ويصلب نظراته على التوتة ذاتها. هو هو. وكي نفهم أن أمه لم تكن يوماً أمه إذ انه لم يكن أبداً، فكيف تكون وان أباه ليس أباه لأنه لم يكن، فكيف يكون؟ ولسبب أشد وضوحاً، وربما لهذا لم نلمحه.. أي أنه ليس من عتمة إذ كانت الشمس تنيرها لأنه تارة جبان وطوراً شجاع. وهذا غير موجود رغم اعتراضات أحد منا. وقرب نهر البدء، اكتشفنا أيضاً السواقي التي كانت تشق الأرض تحت تراب رياء كنا نجيده حتى استحلنا مجرد أصحاب السنة طويلة تأكل الحكايات، تشرب الحكايات، تجتر الحكايات، تنام في الحكايات، كدنا نصبح حكايات، اللعنة! بدت السواقي شفافة بعكس خداعنا. ولقد كانت سواقي سذاجتنا ذاتها تنبع من نفسها

Twitter: @alqareah

وتصبّ في نفسها لأننا آمنا بأمه ولم نؤمن بالله، لأننا بقينا نتذكر
ولم نتـذكر سواعدنا، لأننا مزقنا نومنا ورعبنا الصبياني بسعي
عابث يحاول تقصي أثر لأثر حصان وهمي بدل أن نعدّ العدة لعمل
ما، لأننا ببساطة نسينا أننا هنا حقاً، لأنكم لم تعودوا إلا موتى كما
قال البيك، ولأننا ذهبنا في تلافيف حكايتها حتى النخاع.. أي حتى
الخروج عن سردها والدخول في سرد آخر من امرأة البيك الى شيخ
الخلوة الى الخادمة حتى واسعة الخيال وعودة الى خالته وعمته وأمه
حتى دخلنا في سردنا نحن كأننا نعمر حائطاً ما فوق عظامنا حين
اكتشفنا لا واقعية ما يجري. لا كل هذا مستحيل. نحن لا يمكن أن
نحكي هكذا أو نعرف كل هذا. نحن لسنا نحن، أنتم لستم أنتم كما
قال البيـك رغم اعتراضات مشتتة. إذن نحن نحن لأن كل كلام
البيك صدق بالمقلوب. هكذا حين بدأنا نكتشف آفاق ضياعنا أيقنا
أننا فقدنا كل شيء. لم يعد لشيء قيمة، نسينا أن نحضر العجين
البارحة. لا لن نحضر حطباً اليوم. لماذا الخبز؟ لن أنزل الى الحقل.
ما فائدة التفاح ولماذا اللعب؟ أدركنا أننا إما على مصاطبنا أو فوق
أسرتنـا نشرب المتّـة باردة حلوة مرة فاسـدة أو تحت التعـريشة
والعصافير تنقر العناقيد انه وحده لن يتغير مهما صار، وانه وحده
الملك، سيأتي ذات لحظة، ويجرنا الى مسكن آخر. كنا نشعر بفراغ
غريب. لماذا عشنا حتى الآن يا امرأة؟ والله لا أدري كأنما البيك
أصاب الحقيقة، فلقد كنا في انتظار الموت صباحاً وعصراً، والأطفال
يصرخون جوعاً والخبز على الرفوف العالية. ونحن لا نأبه لهم. وقد
غدت الأشياء شفافة بيضاء ليس لها رائحة. أصبحت رائحة البراز
مثل رائحة الورد، يا ليت لم يعد ثمة رائحة! بدأنا نموت واحداً بعد
الآخـر. كنا على وشك الانتهاء. لا أحد. ستضمحل ضيعتنا بعد

Twitter: @alqareah

ثوان، إذ دخلت امـرأة البيـك على صهـوة حصان أخضر كورق العنب. هي الظهيرة تماماً والشمس تبرق بين الغيوم وفوق شعر الحصان المقصوص. وكانت امرأة البيك في حلتها الرائعة، عباءتها المقلمـة بخيوط القصب المذهبة. داست قدماها الجميلتان الدار حين ارتفـع صوتهـا وحيداً. لم تتحرك لها عضلة، لم نسمع لها تنهيدة. قالت: لا حاجة بكم الى الموت. الحياة حلوة يا أصحابي. كانت كأنما تتحدث بالتركية، ولكنها تركية غير مألوفة، فلم نقتنع وواصلنا الموت. قالت: لا حاجة بكم الى الموت.. غداً يأتي وحده، وكل شيء في وقته جميل، فأمعنا في الموت، عندئذ أعلنت أن لا حاجة بكم الى الموت، يكفي أن تعيشوا كي تنظروا إليّ وتحلموا بي، فتوقفنا عن الموت فوراً. حقاً كدنا نموت ولا نراها بعد ذلك. اللعنة! كدنا سنحرم من رؤيتها. اللعنة! كيف كنا سنعيش دون أن نراها عندما نصبح موتى؟ ولقد أشارت لنا باصبعها ثم امتطت فرسها وعادت عبر النهر، فبدت الأشجار أشجاراً ثانية. عدنا نعجن العجين، نخبز الخبز، نشعل الحطب. انطلقت خالته في ذكرياتها. أخبرتنا كيف دخلت القبو لتجد عتمة منبطحة تحت جرن الماء وشرانق الحرير تغطيها إذ انها نامت طوال الشتاء ولم تشعر بديدان القز تعشش في فتحـات أنفها وبين ثدييها وداخل سرتها. وراحت الخادمة في بكـائهـا المـر، فأسكتت خالتـه، والتهمت رغيفاً ساخناً من قبيل الغضب، وأخذت تحدثنا عن موت امرأة البيك قبل سنتين وأكثر، فقاطعناها ضاحكين كلنا: يا معتوهة يا بنت الحبشة والديك! قبل لحظة كنت تخبريننا حكايتك العجيبة كيف كانت الضيعة تموت البارحة.. كيف جاءت امرأة البيك أنقذتنا. كيف الآن تقولين انها ماتت منـذ سنتـين؟ هل قلت هذا؟ إذ تذكـرنـا نهر البدء، رمينا

Twitter: @alqareah

الحكايات غير المعقولة جانباً، واخترقنا سراب الحقول كي نشاهد أمه ثانية. ربما نستعيد الشكل، فتحلقنا حولها. وكانت صورة أبيه مؤطرة بلوح خشبي عريض لا يناسب حجمها، ومثبتة بمسمارين في صدر الدار. ولقد كانت ملفوفة بمنديل أسود. وقربها كانت صورة أخيه، وجهه أسمن، ولكن شاربيه أقصر. وثمة شذوذ واضح في حجم أنفه، لكن هذه الصورة كانت أجمل، وكانت صورته هو غامقة جداً، يغمرها الظل، غير واضحة الملامح على الاطلاق دون أي منديل أسود. طبعاً كانت تبدو مشعة رغم مظهرها البسيط. كان يلبس قميصاً أسود او ربما ملوناً. كان من الصعب أن نحزر. لا أسود. أسود حتماً. وإلى يسار الصور كانت أخته غارقة في حياكة الصوف، وتبدو طرشاء. إذ انها لم تكن تتابع معنا حكايات أمه التي كانت تواصل سعلتها ذاتها المحافظة على البثور ذاتها. الريق على الشفتين الرفيعتين كعذق البقدونس. بدا أنها لم تكن تعرف كيف تبلع لعابها إذ حركت الجمرات بارتعاشة خاطفة، وأخبرتنا عن آخر منام لها. فلقد رأتنا نضع القطن في فمها: لقد كنت ميتة قبل أواني. كان يجب أن أخبركم أموراً كثيرة بعد كي تفهموا كيف تعيشون ومتى، فمثلاً هل كنتم ستعرفون أن فرسه ستدخل الدار بعد موتي كي تشارك أخته فرحها بالزواج أو أن امرأة البيك ستبدأ كذبها الغريب عن أخبار حب يفرخ في القرف والاحتيال الى حد اجتذاب الضبع بذبح عجل له كي تصاب برعب بحجم كذبتها.. هل كنتم ستعرفون مثلاً أن شخصاً باللباس التركي سيطفو مع النهر فجر وفاتي وسيطفو في الاتجاه المعاكس للرهط الراحل من الجراد، وأن ذلك الشخص لن يكون إلا شيخ الخلوة؟ وهل كنتم ستعرفون مثلاً أن خادمة البيك هي أختي بالرضاعة؟ ذلك أن جدته لم تخبر أحداً!

Twitter: @alqareah

أو أن الخيالة الأتراك لن يمتطوا حصاناً أبيض بعد وقعة التل أبداً لأنه بعد أن فتك بهم جعل فرسه تخلب ألباب الأحصنة البيض وتأمرها برمي فرسانها عن صهواتها. وهل كنتم ستعرفون مثلاً أنه حضر جنازة أخيه وشاهده يدفن، وأنه أتى إليّ قبل موت أبيه وأخبرني بقراره؟ وهل كنتم ستدركون مثلاً أن واسعة الخيال هي جدة امرأة البيك، وأن امرأة البيك ولدت لحظة موتي؟ فلقد كنتم تضعون القطن في فمي وأنا أبصقه.. لأنها كانت تريد أن تخبرنا أشياء كثيرة، لكن موتها أتى مبكراً ومبكراً جداً. حين استفقت وجدت قطن المخدة في فمي. أخبرتنا، وكنا نلتفت الى الصور، فقالت لنا ما أتينا لسماعه. لا بد أنه قد وصل الى البقاع الآن وهو يتحضر للسير صوبنا مع عصاباته، خيوله، فرسانه، سيفه، خنجره، بارودته، أكياسه الجلدية، غدارتيه، والحرز المكتوب بخط شيخ الخلوة يقفز على صدره إذ ان أمه كانت متنبهة لكل شيء. لا بد أنه قد باشر السير الآن فوق فرسه الليلية، لا بد أن الأتراك يصبون ماء مطهراتهم على الحطب كي لا يرى نارهم فيطفئها، لا بد أنهم يموتون رعباً الآن، يحاولون ايقاف دقات قلوبهم كي لا يسمعها فيوقفها.. لا بد أنه يميل فوق فرسه الآن.. الريح تطيّر خصلة أعلى جبهته، يحدق في العتمة، هو سيدها، خلفه قوافل القمح يجلبها الى الضيع غير المنسية لأنه لم ينسها قط. وحده سُراج طريقه القمر. لا بد أنه يقطع النهر الآن يقفز فوق صخور الهوة الضخمة. هيا اذهبوا الى بيوتكم وتعالوا مع الفجر. دقوا باب المصطبة الخلفية. سوف أرفع لكم المزاليج، أزيحوا الجراد جانباً، لا تأبهوا للريح تمزق الأغطية فوق شجرة التين لأنها يبست وحدها، ادخلوا بسرعة غرفته. تأكدوا أن تغلقوا الباب وراءكم كي لا تفسدوا كل شيء.

Twitter: @alqareah

احمدوا ربكم، بعثه من فجر الليل والماء اليكم كي لا تموتوا، لا بد أنه يقطع الكروم الآن، والويل للضبع إن قارب سيفه. هيا اذهبوا الى بيوتكم فلقد عاد، وحده سيد العتمة.

كان غبار القمح يخرج من شقوق جدران الخلوة. لقد كانت مليئة بالثقوب. وحين نقلنا آخر كيس قمح من الزاوية المتهدمة استطعنا أن نلمح ظلال القمر فوق رأس النبع إذ ان صخراً بحجم المحدلة كان مفقوداً في تلك الزاوية. عثرنا على هذا الصندوق. قالت خالته رغم أنها لم تكن معنا وقتئذ بل في القبو تحت البيك الكبير، وكان هنالك كتب مصفرة ملتصقة بقعر الصندوق، مكسوة بطبقات سميكة من الخز الأخضر بحيث أننا كشطناه بأحجار الصوان كي نستطيع تصفحها وكي نجد أنها مكتوبة بخط اليد. وعندئذ تذكرنا كلام أمه عن جده يوم نفي الى الاستانة لأنه كان من أعداء السلطان كما أخبرنا البيك فيما بعد، فهرب من الانكشارية عند جبال الباروك، وعاد أدراجه في الثلج ضاحكاً، فصعد الى السطح وجلس قرب المدخنة ينتظر، فإذا بأخيه خارجاً من القبو، فقال أرمي عليه حصاة من هنا وأرى إذا سيراني. ونظر حوله، فلم يجد إلا العشب والمحدلة، فتناولها ورمى أخاه بها، فأصاب منه مقتلاً، فلم يعرف ماذا يفعل سوى أن ينهار كبقرة مذبوحة على مهل. قتلت أخي. فسمعت الانكشارية صراخه بينما هي خائبة، فعادت مسرعة، قيدته، وأخذته، فوضع في السجن حيث وجد نفسه شريكاً لعجوز مسلول، فكان العجوز يبكي ويقول: احملني كي أرى الشمس، فكان يحمله. أنزل سروالي كي أبول، فكان ينزله. أرفع الجرة كي أشرب، فكان يرفعها، حتى أتت ليلة ساخنة ليس فيها بصيص نور، فقال له: احملني كي أرى الشمس، فأدرك عندئذ أنه

Twitter: @alqareah

كان أعمى طوال الوقت، ثم انه قال له: انقلني الى الزاوية الأخرى، فأدرك عندئذ أنه كان مشلولاً طوال الوقت. وكان قد تلقى خنجراً هدية منه. ويزداد نحولاً، ويقضي ليله في هذيان رطب له ملوحة: لو كنت لم أزل سلطاناً لكنت أطلقتك حتماً. ارفعني كي أرى الشمس للمرة الأخيرة، فرفعه. خذني الى الزاوية الأخرى، فأخذه، قس ثلاثة أشبار بدءاً من تلك البلاطة الناتئة، فقاس. ارفع هذا اللوح السري، فرفعه. أخرج الكيس من داخله، فأخرجه. وكان فيه كتب وأوراق وحبر وريش وحطام مرآة وأزرار ذهبية وجوارب صوفية محشوة بالخزامى وخنجر طويل ذو مقبض عاجي ولفة جلد جمل وعلبة تبغ فضية وخريطة ممزقة ومحروقة الأطراف. شمها. كاد يختنق بها. أمسك العجوز يد جده بأنامل كالخشب، وثقب الفسحة بين أصابعه بريشة محبرة، وقال له: اكتب، فلم يكتب. اكتب، فلم يكتب ثم انشق الهواء الراكد عن رائحة بران، فبدأ العجوز المسلول يلقن جده الألف باء ألف، تبعتها همزة وريشة على القبعة اسمها فتحة. هذه الألف رمز الله. باء حرف آخر هو الحرف الثاني، والنقطة فيها مخصوصة بدلالات منها حديث ولي من أولياء الله. تهب رياح باردة. يزداد منسوب المياه. تمضي تسع سنوات. وثانية يقعد العجوز على كتفي جده تاركاً الساقين تتدليان كسراويل طفل فقير. كم جميلة هي الشمس اليوم! كان العجوز يقول بينما جده يتلقى رذاذ الموج الليلي القاسي. خذني الى الزاوية الأخرى، فأخذه. ماذا قال بعد ذلك؟ أخبرني ذلك، فأخبره، فقال له إنك تمزج حكاية الامام بحكاية أولاد. ماذا بك؟ هيا أخبرني ماذا قال حقاً، فقرأ جده الكتاب بعد الكتاب، وأعلن أنه ضيع الحكاية، فأعاد العجوز أمره: أخبرني ماذا قال بعد ذلك، فقال جده إنه ظل في بسط وانشراح حتى

Twitter: @alqareah

أقبلت الليلة الستمائة على احتجابه، فأتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب القبور ومعمر القبور، وهو كأس الممات، فسبحان الحي الذي لا يموت، لكن العجوز بصق وقال: يا كذاب يا منان.. أتنهي حكايته بالموت كي تخلص مني؟ لا والله لا أتركك حتى أنال منك ما لديك. افتح يديك.. دمي يخنقني.. احملني الى الشباك. أسرعْ. وكاد جده أن يختنق واليدان الخشبيتان تسحقان عنقه. لو مات جده في السجن لربما لم نكن هنا الآن، لربما لم يكن هو نفسه، ولم يدر أحد كيف حصل ما حصل على وجه التحديد، فلقد اخترع جده عندئذ أكثر القطب غرابة في تاريخ الحكايات، ففاق وفاق واسعة الخيال إذ أعلن انه مات ثم بعث حياً عند الباب نفساً واحدة تغير قمصانها من عصر الى عصر حتى أضحى السلطان ملك المكان والزمان عين الجور والحكمة له الرعية والفرسان، فأتت اليه جارية غادرة في ليلة منيرة ومعها الموالي والكلاب فتسلطت وتملكت وربطت يديه وفتحت فكيه، شربته داء السل قطرة قطرة مجبولاً بشبقها الفتاك حتى حولته الى كومة عظام في كيس جلد وبقية ساقين مشلولتين ثم انها طعنت صدره بخنجره، وحمت دمه فوق جمر مسائي.. جمر حقدها الغدار على ألفي جارية نمن معه في فراشها واحدة تلو الأخرى ثم انها سكبت الدم المغلي في عينيه ورمته في السجن، ماذا حصل بعد ذلك؟ صرخ العجوز المسلول، يكاد يقتل جده، فاستل جده من العالم الرطب نفساً أخيراً او هكذا أوهمنا، وختم القطبة للأبد، ففي السجن عاش السلطان وحيداً لا يعرف الليل من النهار حتى بعث الله اليه من يحمل عنه همّ الحركة والسماع، فعلمه كيف يفك الحرف، ولقنه رموز الباطنية، وجعله يسير في دروب كل فرقة منها حتى فاقه إبصاراً عندما أدركته حمى

Twitter: @alqareah

غريبة، فتسلق ظهر مريده، وأخذ يخنقه بيدين فخاريتين، فاستسلم المريد لإرادة ربه، وقال: ربي ليس لعبدك الفقير إلاك، فسقطت كومة العظام عن ظهر جده وتمزق كيس الجلد. ذلك أن كرامات جده كانت مشهورة، فمن يجهل كيف خرج من السجن؟ كيف كان يطوي الصحارى والجبال والسهول؟ كيف ظل حياً دون طعام أو ماء؟ لكن أحقاً كتب بدمع المقلتين الميتتين اللتين شالهما من قفة العظم انه سوف يغمض عينيه ثم يفتحهما، فيجد عظام الميت تركبت منشاراً، ساقيه حبالاً، صدره قارباً، له شكل الحسكة. فلما فعل، حصل ما كتب. وعند صخرة الغدير لمحته امرأة البيك رغم أنها لم تكن في هذا القميص حينئذ، فدخلت على البيك وأخبرته، فقال: لا تخافي طفلتي لن يحصل شيء، فلقد عاد ميتاً. ولقد كان جده أتى قاطعاً النهر يسير كأنما يطير، فاعترضنا دربه امام الدار نرحب به، فتجاوزنا، لم يشعر بنا، كان كالسائر في نومه، كان قد ولج القداسة. هذا في حدود العقل، فدلف الى القبو تحت البيت الكبير. تجنب جسد عمته المكوم تحت الجرن. داس روث البقر المائع، وانحنى فوق صخرة تسند جرن الماء، فشالها بيده اليمنى، وأنزل يده اليسرى في حفرة مخفية. أخرج مطرقة وازميلاً. أخرج هذا الصندوق. أخرج معولين. أخرج كومة حبال، وسار نحو أشجار التين وقد جن الليل وساد الهدوء، فانطلقت صراصير العتمة في طقوس حداء مرعبة، وكانت الشمس تغمر ضيعتنا بينما العتمة تلف الفسحة بين أشجار التين، لم نقترب منها. لم نعد نحس بوجودها كأنما لم تكن، هل كانت أصلاً؟ حتى مضت ليلة.. مضت سنة، فأبصرناها ثانية خلوة من الصخور الهائلة، شالها جده على ظهره من قلب المنحدر، معلقاً بجدائل خفية وحبال. كان ذلك جده،

كان ذلك شيـخ الخلوة إذن. ومنذ تلك الظهيرة لم نعد نعرف كم عاش. هل عاش؟ كيف عاش؟ ولماذا عاش حتماً مد الجبال له؟ لكنه حتماً كتب له الف حزن، ومنحه الف كرامة، لكنه حتماً ظل يجوب الخلوة متسربلاً بالخفاء، يبث الأخبار بينما ينتظر ظهوره، وقد توكل على ربه، وانغمس بذكر اسمه ثم طار الى حماره بقفزة جبارة، وسار يمزق صمت ليله المتجول.

قبل أن تدركنا رياح شباط في تلك السنة الشهيرة تبين لأزواجنا أن امرأة البيك في نوبة حمى مروعة انخرطت في حكاية غرائبية الى حد الصدق القاطع إذ ان الخادمة أخبرتنا أنه يوم مقتل أخيه عاد هو من الحقل فالتقى بصبايا في الكروم عائدات من الغدير فأرسل وراءهن غزله: يا أم العيـون مكحلة بالمجـرفة.. حبك بقلبي مثل لبطات البغال، فكنا نتصنع عدم السماع بينما النار تلتهب إذ اننا كنا نعشقه دون أن ندرك أو نعلن ذلك. وحين التمع الصليب فوق صدر احداهن لوى رأس حماره ليتبعها، فتجمد الحمار كالحجر، وأخـذ ينهق بصوت عال، فصفعه وركله وشتمه، وصرخ يناديها: ولقـد ناديتـك والحمار يعاندني، صليبك براق، شعرك يذبحني، فأرسلت له بسمة خاطفة، فنظر اليها نظرة أعقبتها الف حسرة إذ انها كانت بعيدة عن مناله قريبة من منال آخر، وحرك حماره نحو البيت الكبير، فالتقى بأبيه في منتصف الطريق، وشاهده يخرّ على ركبتيه، فترجل وأسرع اليه. ولما لم يعرف منه إلا نبرة دمعه هزه هزة شديدة وصرخ به: أخبرني كل شيء الآن ودفعة واحدة، لكن أباه كان يبكي ولا يحكي، ويتساقط ولا يتماسك، فحمله وهرع الى البيت الكبير. قلنا له كيف أن أخاه عاد في الليلة الماضية بينما هو غائب في الحقـل يرويـه، فأخبـر أبـاه أنه يود أن يقترن بأخت البيك،

Twitter: @alqareah

أخبرناه كيف ذهبنا الى البيك لنطلب يد أخته وكيف رفض طلبنا.. أخبرناه كيف دخل أخوه القبو وحبس نفسه، بل انه ولج القبو وقبل أن ينزل المزاليج نشف دمه ومات، ذلك أنه عشق أخت البيك عشقاً مهلكاً مذ رآها عند صخرة الغدير، أخبرناه أن أخاه سيدفن عند الظهيرة، رأيناه يعانق أمه. ولقد توجب علينا أن ننتظر عودته الثانية كي ندرك أن أمه لم تكن تبكي فوق كتفه بل تباشر مقدمة حكايته، أخبرناه أننا يجب أن نؤجل الدفن الى المساء، ولكنه لم يسمع شيئاً، هزّ رأسه بعد أن سمع كل أقوالنا، ردّ عزاءنا بأجمل منه والطف كأنما أخونا الذي مات ثم دخل القبو، أسرج حصان ابيه، امتشق سيفاً من حيث لا نعلم. كان حصانه يركض خبباً، كان يطير، كان يحطم السياج حول مزرعة البيك، كان يقتحم الاسطبل كريح شمالية. كان الاسطبل يهوي خلفه حين فرقعت البواريد من كل نحو وصوب. أخبرتنا الخادمة أن امرأة البيك كانت تقرأ حكاية الكنز في مقر البركة، يحرسه حرف سري لما سمعت الضجة فركضت الى المصطبة المعلقة، فشاهدته على حصانه والسيف يلمع في يده. كان الغبار يلف الدار، فلم ابصر أياً من الرجال، لكني كنت أسمع صخب المعركة ثم لمحته ينطلق نحو البستان، فلحقت به في اللحظة الأخيرة إذ انه كان قد بطح زوجي ارضاً وهمّ بذبحه لما صرخت به: يا كلب يا جبان، فأسقطت السيف من يده، أنت! قيل انه قفز فوق حصانه وفر، قيل انه لم يجرؤ على مواجهة امرأة البيك في نور النهار. قلنا للخادمة إنها كاذبة، فأقسمت أنها لا تكذب إذ أن امرأة البيك لم تخبرني هذا عن عمد بل كانت تهذي به لما ضربتها الحمى. رأيناه قرب الاسطبل يجابه فرقة من الخيالة الأتراك أتت في حراسة باشا نحيف رأيناه يغادر الدار نحو الخلوة وليس نحو

Twitter: @alqareah

قصر البيك كما يقال، لكنه نزل الى حقله، في حين أعلنت خالته للمرة الأولى الحكاية الأكثر قدرة على الثبات.. أي انه لم يهرب في ذلك اليوم مباشرة من دار البيت الكبير ولا في اليوم الثاني من قصر البيك ولا ليلة بدء فراره السحري المزعوم بل عند ظهيرة حارة بعد أن أشرف على الموت خنقاً بيد شريكه في زنزانة رطبة محاطة بالحراس الأتراك بسيوفهم الطويلة وطرابيشهم الحمراء الممنوعة. ذلك أنه كان زعيماً من زعماء قاطعي الطرق، ولكنه كان أيضاً سيد العتمة، حرف الرعب السري المعلق تميمة أمام أعين الانكشارية، يكمن لهم عند كل ممر ضيق في منحدر صخر خطير مذ شعر الشجر والماء والنحل والعصفور بخطو جزماتهم فوق جبالنا، ذلك أنه كان عدو السلطان الأول، ذلك أنه كان يحمل حرز البركة والقوة بخط شيخ الخلوة ذاتــه، هو هو وكــان فراره أعجوبة رمت الاستانة بالسل، ضربت الدردنيل بالخبل، تلك من آياته.

ترى هل كانت جدتي تفــوق واسعــة الخيال مقدرة على نسج الحكايات؟ وهل جعلت حياتنا حدثاً للتفصيل والتشويق والملل في واحدة من حكاياتها؟ وهل كانت امه أم كانت أخته أم أنه لم يوجد على الاطلاق؟ وكنا نسمعه يهذي، فلا نعطف عليه لمجرد كونه يمت اليــه بصلة قربى بل لأنــه كان يملك ذات الرموش الطويلة حين تراجع خائفاً قرب باب الخلوة فزلت قدمه وكاد يسقط في الوادي إذ وقع فوقه الوعي المدهش كما أخبرنا وكما تنبأت عمته قبل سنين، ففهم أننا جميعاً معه أو دونه لم نكن ولن نكون سوى حرف واحد يثقب الحكــايــة المشوهة نحو الحكاية الحقيقية.. حكايته طبعاً. وطبعاً لم نفهم كلمة واحدة من كلامه. وأنا أيضاً. قال بعد ثوان قليلة. وخلاصة الأمر أن بحثنا عن مفتاح لعبث ضياعنا باء أيضاً

Twitter: @alqareah

بالعبث حتى أدركنا أن عمته، وعمته وحدها كانت قد تنبأت بولادته عقب حبس نفسها في القبو سبع سنين كاملة تدرس وصايا قديمة وتعيد نسخها وحرقها، وتحلم بين فترة وأخرى ببيت كبير، كله جدران، وليس فيه غرفة واحدة. خرجت منفوشة الشعر، عيناها بركتا دم هادىء، فنفضت التراب والديدان عن كتفيها، وأعلنت أنه سيولد قريباً. وفي الصباح التالي عثرنا عليها ومياه الجرن العتيق تغمر راسها إذ أن أمراً ما جعلها تضع راسها في الجرن ولا تخرجه، لكن أحدنا ولم يكن في الضيعة وقتئذ أخبر أحد قطاع الطرق أن احد رجال البيك رأى عمته على السطح وضوء القمر يرمي ظلها خلفها، فعربش على شجرة التين وسار على رؤوس أصابعه حتى وصل الى حافة السطح فدفعها فهوت. وصادف هبوطها فوهة البئر فولجت بها بقوة بينما أعلنت خالته أن دفن عمته سيؤجل الى الغد كي أجفف شعرها وأنزع الشرانق عن وجهها، لا بد أنها نامت سنين عديدة، فتسلقتها ديدان القز وتكاثرت فوقها، وأخذت تتزايد حتى حولتها الى شرنقة هائلة. ولقد تنبأت جدته بذلك قبل قرن وأكثر قبل ان تولد عمته. وهكذا ولد هو وأخوه في اللحظة ذاتها بينما المعركة تشتد عند النهر. ولقد صرخ أبوه لما رآه فرحاً أنه جده ذاته، لكن خالته هزأت به وقالت انه لا يشبه أحداً إلا شيخ الخلوة حين نظرت أمه اليها نظرة مميتة، وتكومت أخته في الزاوية ترتجف من البرد إذ انهم لفوه بكل الأغطية. كان الطقس عاصفاً في الخارج، والثلج أوشك أن يدفن البيوت، نفقت المواشي في الزرائب، وانفجرت الديدان في التراب. خارت أبقار البيك، نامت فوق العجول لتدفئها. اختفت العجول. أخذت الحمير تموت. صعد دخان من الحرج. جلست امرأة البيك تقرأ للخادمة حكاية الشاعر المتيم الضائع في

Twitter: @alqareah

متاهة قرب غرفة حبيبته، يسمع غناءها فيناديها فيضيع صوته. وهاجرت الطيور، وبدأ الجراد يموت جوعاً. ازدادت أمراض دود القز في حين خرجت حشرات غريبة من أعشاشها وأعلنت الأكل على ما تبقى من ورق توت أخضر. غيّرت النمال دروبها المعتادة، فولجت القبو، وعششت داخل الجرن وفي الثقب داخل قن الدجاج بحيث أن خالته اضطرت الى ذبح الدجاجات دفعة واحدة وتوزيعها على الجيران قبل أن يسحقها النمل. بدا واضحاً أن ثمة خطباً ما. لم يفهم احد كيف ارتعشت الأرض. شاهدنا الضباع تكرّ متدافعة صوب الخلوة، تجتاح أشجار السرو والتين والجوز، وتنبطح على العتبة مرسلة عواء الموت صوب سماء بنفسج عطشان. كان شيخ الخلوة يرمي اليها اللحم من قصعة بحجم الكف عند حافة الشباك المرتفع حيث كانت تعشش أصناف طيور مختلفة، ولم تكن الذئاب تشبع أبداً، ومثلها الطيور، فظل اللحم والحب يفوران أمام أنيابها ومناقيرها حتى لمحنا نور سراج خفي يلمع داخل الخلوة، فارتجفت ركبنا وتسارعت أنفاسنا، وسمعنا عواء الذئاب يتقطع على مهل حتى اضمحل تماماً. فتمايلت الأشجار منداحة مع نشيد صرصار متوحد يحتضر دون رفيق. رأينا قمصاناً تطير في الهواء، صوفية خضراء بيضاء حريرية محاكة بعناية، كتانية مقلمة بخطوط القصب، خضراء رثة، مرقعة أصنافاً وأشكالاً. بدا كأن ثمة سهم حرفٍ يتجاوز القمر والظل، يخترقها جميعاً واحدة اثر الواحدة صوب السماء الليلكية. ولقد ذهلنا تماماً، فلم نتبين حقيقة أنها ذات السماء التي أطلق صوبها حشوة بارودته صنعها بيديه، أعلن بدء صلاته الحقيقية، قدس الله سره.

فجر ذلك اليوم تبين لنا أن الثوب الذي وجدناه قرب الخلوة لم

Twitter: @alqareah

يكن ثوبه بل ثوب أخته. وحين طلبنا من صهره أن يسمح لنا برؤيتها. هيا اذهبوا من هنا. لماذا تفعل هذا؟ وبدأ كلام مألوف حول جده وجدته. كان جده دميماً جاحظ العينين، ضربه الشلل بعد عامين من زواجه، فاعتكف داخل غرفته يقرأ كتباً صفراء، ويداوم على ذكر الله وفك رموز الرسائل المقدسة بينما كانت جدته رحمها الله لا تجيد الكتابة والقراءة، ولم يكن وقتها ليسمح لها بأشياء كهذه، فهي كانت امرأة ورعة، لها ساقان ضخمتان وذراعان أضخم. قل انها من أصحاب الأجسام الضخام، تزرع الأرض بالخضار والحبوب، وتعتني ببستان التفاح. وأيام القطاف تعمل في حي الكروم مقابل الطعام ومؤنة الدبس. أما جده فكان كسولاً لا يجيد عملاً سوى الحكي وتقديم النصح، سمعته ذات مرة يشتم الحق. كانت جدته امرأة نشيطة تحتفظ بسمعة حلوة وبذكرى غامضة عن قريبة ما. أخته جالت بلداناً كثيرة. أمه عاصرت ملوكاً وممالك. جدة جدته تجيد عقد العقد سراً، ضرب العود جهراً، الرقص وتفسير المنامات والتبصير وطبخ الرز بالدجاج وحشو المصارين باللحم دون توفر السكاكين أو فناجين القهوة أو ورق اللعب أو مساحات الرمل. خالته تكره الملوخية، تعشق الحبق والنعناع، ذكرى قريبة ما، لم تعرف من الماضي أم من الحلم أم مجرد هذيان، لكنها ظلت تحاول انتشالها من هوة الضباع، تارة بملاطفة جده حتى يقرأ لها على ضوء السراج حكاية التجوال في سوق السجاد والثريات بحثاً عن مفتاح الصندوق الضائع، وطوراً بالجلوس مع قاطفات العنب بين النوبتين الأولى والثانية علّها تحظى بحكاية تعرفها حتى انتابها الضجر، فذهبت تزرع القصب قرب بستان التفاح عند رأس النبع حتى كادت تغمر الوادي بموسيقى

Twitter: @alqareah

الحفيف الخشن. وذات مرة كي تعرف خفة ظلها، أحضر جده معولاً من القبو الى الحوش وراء المصطبة إذ انها كانت منهكة تماماً، فعجبت من نخوته غاية العجب، وأبصرت دمعة عرق تسقط من جبهته، فأسرعت اليه بعنقود من العنب الاحمر مغمساً بماء بارد، أطعمته إياه حبة حبة. وكان ذلك أضخم عمل قام به في حياته، لكنه كان مؤذياً أيضاً، فكان يصطدم بفخارات الحبق وصبار الزينة بينما يدخل الحمام، فيلوث الأرض بالتراب أو يسير وهو نصف نائم متعكزاً على عصاه الطويلة. وكم مرة وضعها فوق قط أو ديك، وبعجه بثقل جسده، وكان غضب جدته يتكوم فوق بعضه حتى وصل الى حافة شرشف قضت في تطريزه سنة وشهر وثلاث ليالٍ، فأسقط عليه فنجان قهوة مرّة. إنك لا تصلح لشيء، وفوق هذا تريد أن تفسد حياتي. ولقد أخذ يصيح كدجاجة نتف ريشها وهي حية، ولقد أخذ يبكي ويزحف على أربع حتى وصل الى الباب فانسل خارجاً. لن أعود بعد الآن. وبعد أن فركت الشرشف جيداً بالماء الفاتر والصابون وضعته على الطاولة حيث كان. تركت الباب مشقوقاً ودخلت تنام. وبسرعة بدأت تشخر. رجع جده مع نقيق الضفادع. فتح الباب بلطف، مشى على رؤوس أصابعه، حبس عطستين، وانسل تحت اللحاف. فلما استفاقت جدته قبيل الفجر كانت ساقها عالقة بين فخذي جده، فلكزت صدره بقسوة، فاكتشفت أن ثيابه لا تزال مبللة بالمطر، فلكزته ثانية، ففتح عينيه. رايتك تموت كما أخبرتني. كنت قد تجاوزت وادي القرن وهم لا يزالون خلفك حين تعثر حصانك، رايتك ممدداً قرب الحصان والرماح مغروزة في ساقيك. قبّل جده جبهة جدته، مسح دموعها الساخنة، وقال إن ذلك حصل قبل زمن بعيد لم يعد يهمّ الآن، لكني

Twitter: @alqareah

لا استطيع أن أتصور كم تحملت من ألم وكم.. ونحن أيضاً كنا كلما التقينا بجده حول طاولة زهر أو لعبة ورق نستعد لسماع الحكاية ذاتها.. حكاية المغامرات المفصلة والمتعلقة بموته في حياته السابقة.. ذلك الموت الصعب حقاً، والذي لم نتوقع أبداً أن يكون ثمة موت أقسى منه حتى حانت ساعته ثانية. ويا للهول لما قاطع موت حديثنا زاعماً معرفة لم يتجرأ أحد منا على انكارها رغم ارتعاشة أصابعنا، فإن الوقت حان كي تفكروا قبل أن تحكوا. من قال ان أخاه مات في القبو هو مجرد مشروع كاذب فاشل، والكلام يقول العكس أيضاً، والأمر ذاته يصح على من يروج خبر مقتله في راس بيروت. وحدي مع أولادي، وبقرتي خرجت أرعاها قرب الخلوة لما رايته على حماره، وجهه كالقمر، يقصد التينات كعادته. كان الحمار يصعد التلال بصعوبة لما خلع رداءه، رمى على جسد، ثوب غيبته المؤقتة وتسربل بالليل، لكننا حين وجدنا آثار حماره تغرق عميقاً قرب الضفة خفنا، فولجنا النهر، وبحثنا عنه دون جدوى حتى وجدنا ذلك الجسد ممسوحاً كجرة فخار، فلم نعرف وجه من كان ولا صدر من كان. وكان يفوح برائحة الليمون كأنه تلة ليمون، وكانت الخادمة قد انطلقت في عزفها المنفرد على كمان سيدتها المولهة، والتي أخبرت البيك بعد تردد طويل وبعد تفكير وإعادة تفكير أنه دخل الخلوة في تلك الليلة وقد وطن نفسه على التنسك والعبادة فنام ما يكفيه لرؤية خيالها في ثوب الريش تتمدد في ضوء القمر بين الأعشاب القصيرة فاستنفد آخر كراماته، دخل عليها مخفياً أول الليل، سحبها نائمة من تحت زوجها، جرها الى الاسطبل، دخلها، وأزاح عنه برد عتمته.

في تموز في تلك السنة أخبرتنا خالته بينما نكوم القمح أن أباه

Twitter: @alqareah

أخبرها أن جدته أخبرته أن جده أخبرها في الفجر الذي عقب مقتل حماره حكاية توافد الحشود على داره معزية بالفقيد إذ ان جده كان طويلاً ناتىء الصدر، سريع النكتة، له فيها صولات وجولات دوخت العقال والجهال، له في كل عرس قرص، وفي كل جرح خنجر، ومع كل مأتم عجيب. قيل إن جدة البيك طلبته الى القصر ذات مرة. وكانت سيدة حاذقة من سيدات زمنها، فسألته لماذا يتحدى الجميع وهو وحده ليس له معين، فابتسم أن حماره يكفيه ليواجه الدنيا، أخبرتنا خالتـه ووجههـا يشـع بشفتيهـا، كان وجههـا بركة ثلج منقوعة بالشمس تماماً مثل وجه أمه بعد أن وقعت البثور عقب مقتل أخيه. ذهبنا الى جده في ذلك الفجر إذ ان حماره تعثر عند رأس النبع، فقدحت صخرة جمجمته، وكسرت السقطة رجل جده. طرقنا الباب قبل الشروق، ففتحه لنا وهو نصف نائم. كان يحمل بطنه بين يديه ويتثاءب منزعجاً، فاتخذنا هيئة الحزن. جعلنا نكر عليه، نصافحه، نربت على ركبته، البقية بحياتك. وحينما توقعنا أن ينفجر في وجهنا بزعيق حاد مستنكراً شماتة وسخرية، تراجع الى الخلف خطوتين، ترك دمعتين صغيرتين تكرجان على خده. شكرنا بحرارة، جميعهم من أهل الفقيد. أعرف هذا، وأدعو الله أن يمد بأعماركم قدر ما زمّ عمر حماري. وحين أصيب جده قبل يومين من مماته بفالج نصف مفاجىء، انتحبت جدته قرب قدميه حتى فقدت بصرها، أمه، وكانت خالتـه تتلعثم، تستدرك، تتراجع، تتقدم، تنحرف في فوضى عارمة بحيث كنا نبدأ الضحك منها عليها في وجهها. الأمر الذي لم يكن وارداً مع أمه أبداً، فلقد كانت صارمة منذ طفولتها. ويوم أتى البيك الكبير ليطلب يد أخته، تجهم وجه أخيه، فوجهت نحوه ست نظرات متتالية أخرجته من بهو الاستقبال ينزّ عرقاً، ينضح برازاً. أخبرتنا

Twitter: @alqareah

خالتـه انها تتذكر ذلك اليوم كأنه أمس. سمعت خالته طرقاً على الباب بينما تكنس المطبخ، فأسرعت نحو المدخل الرئيسي الذي كان مشرعـاً كعـادتـه إبان النهار. كان البيك يتكيء على الباب خلف العتبـة. أهـلاً وسهـلاً. ارتجفت كف أبيه، كادت تسقط من يده وتسقط فنجان القهوة. اهلاً وسهلاً. حافظت أمه على بثور وجهها. اهـلاً وسهـلاً. ابتسمت خالتـه دون انفعـال. قالت أمـه إنهم سيفتخرون ببيك ابن بيك صهراً. ولج أخوه القبو، انهار باكياً. لن اسمح لهم لا إذ ان أخاه كان يحب أخته حباً جارفاً حتى باتت أمه تتمنى مجيء أي مجنـون، ولكن فليـأخذ هذه البنت. كانت أمه تحكي لأبيه، فكان يحدق الى الأرض حابساً دمعه. قالت خالته إن البيك دفع مقدم الصداق وهو يضحك كولد خمسين ليرة ذهباً.. صندوق خشب محفور.. ثلاث أساور ذهباً.. عقد ذهب. وحين أعلن موعد العرس أدركنا أن أخاه سيقدم على أمر خطير، ذلك أنه اختفى تماماً. أنا لم اتزوج قبلاً ولن اتزوج بعدها ابداً. قال البيك لأمه، وكانت شبابيك البيت الكبير مغلقة في ذلك المساء وأمه تجلس قرب النار كعادتها، أخته في المطبخ تعد القهوة، أبوه يتصنع النعاس، وأنا لا حول لي ولا قوة. وبعد اقل من عام انجبا ذكراً، ولم يمض عامان حتى أنجبا ثلاث بنات. وفي ذات الليلة التي خرج فيها البيك ضاحكاً من غرفة نومة وتوجه نحو الاسطبل ليمتطي حصانه ويدور حول القـريـة في نزهتـه الليليـة فوق شراشف الجـراد والأوراق الصفـراء، هبت ريـح نار موعودة اجتاحت الاسطبل بينما فرس غامضـة تقتحم الدخان والقصر، توشك أن تخطف امرأة البيك، فتجمـح دون سبب، تلقي بفـارسها أرضاً. وقتئذ كنت ماراً قرب الاسطبل. لمحته يخرج من الغابة. لحقت به. قالت الخادمة انه لم

Twitter: @alqareah

يصل على صهوة فرس بل أتى راجلاً، انتظر طوال النهار في عتمة الاسطبل حتى سقط الظلام. كان البيك يضحك كولد صغير عثر على عصفور مجروح. قالت خالته بلهجة حالمة، فلم نتمالك أنفسنا، انطلقنا في نوبات ضحك موتورة طيرت منظر القمح من أمام العيون، أغـرقتنا في الدمع. وذلك أنها أدارت ظهرها لنا تشتم غباءنا وقلة أدبنا، وتهذي بكلام شبه مألوف. كانت تكلم فارساً وهمياً يسير الى جنبهـا. اندفعت نسمة باتجاهنا، جاءتنا بنصف جملة: لكن أين كنت كل؟.. وأسرع الأولاد خلفها، ووقعنا في الصمت حتى نخاعنا وقد أدركنا همس حفيف دعساته فوق سنابل القمح.

عند شجرة الجوز الكبيرة، نتذكر الآن. ازدادت سماكة الجراد بحيث أعاقت سيرنا، فكنا نتعثر كالصبيان ونهوي على ذقوننا. حين أغمضنـا عيوننا كي لا نضيع ضيعتنا الى الأبد تبدى لنا قدرنا واضحاً كبركة مياه راكدة منذ ألف سنة ماضية. نتذكر الآن فرسه تخب فوق فلوات رعبنا البشري نحو حبنا الأجاج له بينما أعيننا المغمضة تتنبأ بالسراج يلمع في اللحظة ذاتها داخل الخلوة وداخل غرفته في البيت الكبير، نتذكر الآن: كانت رياح صحراء تهب علينا في تلك البقاع داخل جبل. نتذكر الآن أن أكياس القمح فقدت وزنها فوق أكتافنا المنحنية وكيف أصوات الليل همدت، ولقد كان هنالك، وربما كنا نموت.

سننصب الشادر عند الغروب لأن الجميع سيأتون عند الفجر. يجب أن نصف الكـراسي حول الدار، ونتـرك ممـراً نحـو بهـو الاستقبـال. ولقد كنا مغمورين بحمى فرح معتق، ورذاذ لطيف يغلف الجو، وكانت خالته تحضر عجينة الكعك بينما أخته تشعل النار تحت الصاج، وعمته تركض من غرفة الى غرفة. لم نر أمه حتى

Twitter: @alqareah

الصباح عندما أطلت يحيط الورد بها. كانت تهفو كصبية لم ترم للعالم بثلاثة رؤوس. حملت أخته ذيل الثوب الأبيض مع عمته. كانت خالته تسند أمه. هل تذكرت في تلك اللحظة عرسها السابق يا ترى؟ مشت أمه على مهل، وكنا وضعنا لها كرسياً كبيراً يتصدر بهو الاستقبال الكراسي نفسها التي جلسنا عليها قبل عشرين سنة يوم جئنا بها الى البيت الكبير. أهو الثوب نفسه هذا الذي ترتدينه؟ رأينا خالته تلج المشهد المكرر. رأينا أخته تمثل المشهد المكرر. رأينا أخته تميل نحو عمته وذيل الفستان يشرق بالثلج بين أناملها. كن يتجاوزن الكراسي المرصوفة على الجانبين مثل ممر خشب ضيق عندما وصلت أمه الى الكرسي العالي. تجاوزتها إحدى العجائز. قبلت خدها. أزاحت المسند لها. عندئذ لمحنا دمعة تتأرجح على الرموش. كأنما في حلم نستعيد حلماً قبله أو فرحاً مر سريعاً منذ عشرين سنة، لكنه غيّر ضيعتنا، قلب حياتنا، أعاد رسم الليل، جعل للعتمة سيدها، فك الحرف المقفل. سبكت أمه أصابعها، أطبقت كتفيها على صدرها. نظرنا الى شعرها المبعثر خارج الطرحة الرقيقة يتألق أسود شعاعياً حول وجهها. نظراتنا تشتعل بحب دفين. من منا لم يحلم بامرأة مثلها؟ النعاس على جفنيك، وصوتها في الأذن. الله ما أحلى الدنيا. سمعنا الزجل، وصوت الحشود المتدحرج صوبنا جرف خالته مع كرسي صغير، جلست على يمين أمه. أشارت الى أخته أن تقترب وحدها. عمته غادرت بهو الاستقبال كي تأمر الصبيان. كنا نعبىء الأباريق على عجل. نملأ الكؤوس بالشربات الحمراء. نسرع بالكعك الى الصواني الفضية نحو بهو الاستقبال. نتخلف عند زاوية كي نملأ جيوبنا بشهوة المساء. همست أخته شيئاً في أذن أمه. لم نتصور وقتئذ أن صوتاً سيمزق هدوءنا بعد

Twitter: @alqareah

سنين طويلة، يسأل عن أدق التفاصيل: متى دخلت البهو؟ هل كانت عمته خلفها أم أمامها؟ أبكت أخته أم ضحكت؟ ولماذا جلست أخته على اليسار؟ حلقات الدبكة دارت سريعاً. عمته أبعدتنا عن القبو. لم نكن نعرف وقتئذ أن أخاه دخل القبو وأقسم الا يخرج إلا مجروراً إذ لم يفهم كيف تتزوج أمه ثانية. كنا نعود وعمته تبعدنا. خيل إلي أن أمه ستنهار. ربما تذكرت أباه. في تلك اللحظة ذاتها كان ثمة صوت في زاوية يدمدم ثرثرة غامضة وخشنة. أتتزوج بعد موته بيومين؟ هذا عيب والله! رد عليها صوت خالته: أبوه مات منذ سنتين يا امرأة النحس. سنتان فرح مثل يومين بالنسبة لي.. تابع الصوت قبل أن يصمت، ونحن نتسابق بأباريق الماء نحو صبايا حي الكروم. اتعرف؟ لم تشرب سوى من ابريقي. لم تنظر في وجهي أظنها تقصد امراً، ذلك اننا كنا نتعلق بأعينهن قبل أن نراهن لكثرة ما سمعنا من أخبار عجاب. أخبرتنا خالته أنه خرج الى الصيد ذات فجر مكسو بالبرد. كانت الرياح تقلب تراب الجذور، تشعل الرعد لما رأى ثعلباً أحمر يمرق مثل لمح البصر، فتبعه. أدخلت خالته صدرها في نوبة سعال مصطنعة حتى النخاع ثم قالت إن الثعلب حشر رأسه خلف صخرة الغدير ثم ولج تجويفاً بالكاد يتسع لعصفور. تبللت شفتا خالته بريق يلمع كندى منتصف ليلة تشرينية، قالت إنه دفع صخرة الغدير بيد واحدة، وسدد بارودته باليد الثانية، فلم يبصرا ثعلباً بل امرأة كغصن البان، تلتف بثوب من ريش الحمام، وتغمر عنقها بفروة ثعلب حمراء، وكان شعرها قصيراً كشعر الصبيان، وجهها محروق بالشمس، أسمر غامق فيه بريق. قال: من أنت؟ فأمسكت بارودته، وجذبته اليها. همست انها من حي الكروم، وأن الخوري أعطاها سر التحول المجيد، فمزجت

Twitter: @alqareah

دمع اخواتها الكبار بريق جدتها المحتضرة، غلته على نار صنوبر اخضر حتى تصاعد بخاره، فرمت فيه زيت الزيتون وزهر الريحان مغمساً بصمغ دراق ساخن قبل أن تنتف شعرها الطويل فوق القدر ثم تسكبه فوق كاحليها، فتتحول ثعلباً. ورفعت ثوبها. كنا نتعمد اسقاط الصواني أمام اقدامهن علّنا نكتشف قدمين محروقتين عندما ارتفع صليل السيوف المشتبكة فوق رغبتنا في تنشق رائحتهن، فتدافعن صوب الدار حيث بدأت مبارزات السيوف، رفع المحدلة، شد الحبال. عندما بدأ البكاء في بهو الاستقبال تنبأنا بوصول زوج أمه الجديد مصحوباً برجاله وقوافل الجياد والهدايا.. حلقات الرقص وتشكيلات السيوف.. الأهازيج والأناشيد.. روائح الورد والقرنفل والزيتون. ذلك أن البيك أراد أن يكون فرحه مسجلاً أبداً في تاريخ ضيعتنا على أنه أعظم الأفراح، بذلت فيه الأموال والهدايا كما لم تبذل من قبل أو لم يدفع المهر مقسماً بالتساوي على خالته وعمته وأخته ويقدم لأمه صندوقاً خشبياً بحجم حصانين مطعماً بالجواهر الكبيرة مثقلاً بالمطارف، والحشايا جلبت من أطراف البلاد ومن ضفاف البوسفور. عند ذلك المفصل تأرجح رأس خالته، بدا ريقها يجفّ. لقد ضجرت. والآن يبدو كل شيء مغمساً بالغبار. اننا نضيع ونتوغل في ليل لا نعرفه. متى يعود؟ وهل يهمس لنا ويشرع حرفه؟

يوم فرح أمه الثاني وبينما البيك يدخل المحبس في اصبعها ذهبياً مشعاً، يكرس نفسه رجل البيت الكبير، لم نسمع صوت الغدارة. أطلق أخوه حشوتها داخل الأذن كي لا نسمع أصوات البواريد تفرقع احتفالاً بزواج أمه.. هذا الزواج الذي لم يفهمه إلا خيانة لأبيه وللبيت الكبير، فزحف عبر القبو، مد يده عبر الثقب

Twitter: @alqareah

المنخفض في الجدار، نقد الديك أصابعه. كان يبحث عن الغدارة حيث خبأها دائماً في قن الدجاج. ولما عجز عن ملامستها حفر في الأرض نفقاً حتى أخرج رأسه ويده اليمنى، وقد غطى وجهه زبل الدجاج. عندئذ رفع الحجر المدور، دفش الدجاجات جانباً، رفع الغدارة. كانت محشوة دائماً. وابتسم البيك. شعرنا به يهزّ البيت الكبير. صارت أمه ترتعش حتى ارتجف الكرسي تحتها ثم أخذت السجادة تزيح نحو العتبة. فرقعت الطلقات في السماء. كان البيك يضحك، وعمته تركض من غرفة الى غرفة، فاصطدمت بالخزانة داخل غرفته، فسقطت على ركبتيها فقط كي تبصر الأوراق التي وقعت من الجوارير وصايا أجداده جداً بعد جد، حجج بيع الأراضي ارضاً بعد أرض، عقود قران جداته جدةً بعد جدة، لمحت خيطاً يلف جلداً قديماً، لمحت خط جده، لمحت خط أبيه. عانقت أمه أخته، واجهشت بالبكاء. كانت عينا أخته مقلوبتين تحت جفنيها. كانت الدموع تكر من فوق رموشها. عندما لامس ذيل الثوب الأبيض عتبة المدخل الرئيسي، سمعنا أخته تهتف: أتعرفين أماه انه لا يزال حياً، وان أبي يبصق عليك من قبره؟ إلا ان الصوت لم يصل الى اذني أمه كما ان أمه كانت قد نسيت كل ما مضى، فهي كانت تريد البيك والبيك فقط إذ ان أمه ابعدت أخته عن الدرب كي تصل وحدها مذ كرهت البيت الكبير وكل الخيوط المتشابكة بظلال شموعه يوم أتت أخته اليها في ذلك الفجر المعتم البارد، هزتها كالمعتوهة. كانت تصرخ: أبي بارد لا يتكلم، إلا ان أمه كانت تكرهه وتكره أخاه وأخته، وتكره عمته وخالته، وتكره البيت الكبير مذ دخل أخوه عليها في ذلك الصباح يزعق كالممسوس: أبي بارد لا يتكلم، إذ ان أخته فتحت عينيها على الظلام كعادتها مذ ولدت. أدركت عبر الرائحة ان

Twitter: @alqareah

الشمس أشرقت، فانـدفعت عبـر غرفته نحو المطبخ، وبدأت تعدّ القهوة المرة كعادتها مذ ولدت إذ ان أباه كان ينهض مع الفجر، فيخرج الى المصطبة قبالة بهو الاستقبال، ويهيء لفافة تبغ بينما تجلب أخته ركوة القهوة الصباحية، لكن أخته في ذلك الفجر الميت لم تجـد الركـوة في الصنـدوق قرب الصحون حيث اعتادت أن تجدها، فظنت أن أحدهم غيّر مكانها، فأخذت تبحث عنها في أرجاء المطبخ ثم غرفته ثم بهو الاستقبال.. كل البيت الكبير، زحفت تتلمس الخزائن، السجاد، الأسرة، المقاعد، المساند، حفر الجدران.. دون جدوى. انتابها خوف شديد. أسرعت الى المصطبة، واشتمت رائحة تبغ محروق. صباح الخير.. لم أجد الركوة. قالت له، فلم يجبها. عندئذ شمت رائحة القهوة الساخنة. لم يتبادر الى ذهنها لو لهنيهة واحدة أن أباه قام في ذلك الصباح وحضر قهوته بنفسه. بحثت عن الركوة ثانية وأبوه لا ينطق بحرف. صباح الخير. أهذا أنت أبي؟ احست لثانية ببياض غريب يملأ بصرها، شمت رائحة براز خانقة مجبـولة بعـطر الورد الصبـاحي وروث البقـرة في القبو. أخذت الأهازيج تبتعد نحو قصر البيك. ربما انتفض أخوه للمرة الأخيرة، نخـاعـه يخـرج من أذنيه، الدجاجات تنقر وجهه بينما ثوب أمه يلامس عتبة قصر البيك، فتسارع الخادمة التي جلبها البيك من الحبشة كي تخدم أمه وتنحني أمام سيدتها بينما ترفع ثوبها. ولقد كانت ذات الخادمة التي ستتزوج رجلاً من ضيعتنا، فتسكن معنا، تشارك نساءنا مواويل حول الصاج، وتغدو مع صبايا حي الكروم عنـد الفجر، والجرة تميل فوق رأسها. ولقد كانت الخادمة التي ستنقـل أخبـار قصر البيـك الى ضيعتنـا، وتمـلأ ليالينا بغريب الأحاديث دون أن تشير الى كونها وقعت في أسره بينما تعبر وادي

Twitter: @alqareah

القرن مع قافلة من التجار حتى مجيء الثلجة الكبيرة لما هاجت الضباع ووصلت الى ضيعتنا وحصل لامرأة البيك ما حصل، فأعلنت الخادمة أنها رأته يعبر بصخرة الغدير. طبعاً أعرفه أوتظنون أن أخباره تنتشر هنا فقط. ولقد أخذني أسيرة لديه أربع ليال عجاب، وأخبرني أنني سأصبح خادمة لدى أمه. تلك من عجائبه.

حينما كانت أخته تسير في الليل أو في النهار تتعثر، تقع، تنهض عبر غرف البيت الكبير. كنا نبتسم بطفولة ونتوهم أنها تمشي وحدها بينما نحن نكنس الأرض خلفها إذ انها تجرجرنا مع ظلها داخل تجوالها الحلزوني من غرفته الى تحت التينة رجوعاً الى المطبخ ثم بهو الاستقبال، ذلك أن شيئاً ما لم نعرفه وقتئذ كان يجوب الحقول ويعبر الجبال حتى رأس النبع.. نبعه. ذلك أنه كان يبحث عنا أو ربما كنا نحن نبحث عنه إذ وقعت أخته قرب سريره تتذكر أخاه. نجره من قن الدجاج، نخاعه يلطخ وجهه. يا للميتة الخرائية! كان ثمة دجاجة علقت أظافرها بشعره، فكانت تطير وتصيح وتنقد رأسه. يا للميتة الخرائية! وكان الديك يهاجمها، فترفسه، وتطير التراب فوق وجه أخيه كي يلتصق برموشه ويتلون باحمرار الدم الحار. يا للميتة الخرائية! لكن أخته قامت صوب المصطبة، رفعت مزاليج الباب، كنست أوراق التين، داست الحبات المتساقطة، تلمست طريقها الى شجرة الجوز حيث جلست فوق أحجار البيدر العملاقة. رفعت كفيها الى جبهتها، أغمضت عينيها. تمددت على ظهرها. كانت رائحة الأرض المبللة تغمرها، واستطاعت أن تنشق روث الأبقار في اسطبل البيك ثم هذه رائحة الخل قرب باب الخلوة.. هذه رائحة التفاح في حقلنا.. هذه رائحة النبيذ في القبو تحت الكنيسة.

Twitter: @alqareah

كانت تهمس وهي ممــددة على ظهرها: هذه رائحة جده يتعفن في الوادي، هذه رائحة الضبع يشم كاحلي. كانت تهمس وهي ممددة على ظهرها: هذه رائحة فرسه الكحلية. ترى أيعرف أين وصلت به طرقه؟ هذه رائحة التبغ والعطوس في فم أبيه وأنفه، هذه رائحة أمه قبيل الشلل مغلفة بالورد، يأخذها البيك الى حضنه، هذه رائحة الدجاجات تأكل جيفة أخيه على مهل، هذه رائحة المسك تغسل ساقي عمته المشلولتين. كانت تهمس ممددة على ظهرها: هذا خرير الماء ينخر صخرة الغدير، هذا همس الريح يمرق في الجوزة، هذا صهيل الأحصنة تداعبها الخادمة. كانت تهمس ممددة على ظهرها حين تنـاهى اليهـا صوت أمـه تقصّ على البيـك حكـاية مبعثرة كالشراشف فوق بطنها. كان بإمكان أخته وهي ممددة على ظهرها بعد أن ترفع كفيها الى عينيها وتغمضهما أن تسمع دبيب النملة في الليلة العـاصفـة خلف صخـرة الغدير، وأن تتنشق رائحة الخز المتعفن داخل الصخور المجوفة عند الهوة. كانت أخته ممددة على ظهرها تحت شجرة الجوز ترى البيك ممدداً في الطرف الآخر من ضيعتنا فوق المساند والخادمة تأتيه بأنواع الفاكهة من عنب وتفاح وتـين مشقشق بالمـاء وصـواني اللوز والجـوز والصنوبر مقشرة مصففـة. هذا ما كان من أمر الخادمة. أما أمه، فكانت قطرات الحمام المثلج لا تزال تشعشع فوق صدرها، وقد جعلت في أذنيها حلقاً من اللؤلؤ بحجم الأساور بألف ليرة ذهب، ووضعت في رقبتها طوقاً من الذهب وقلادة من العنبر تضرب تحت نهديها وفوق سرتها وكسـوتها مما أحضره البيك من الاستانة والاقاليم.. أي قميص رفيـع من قشر القصب وشـال من الحـرير الأخضر وبدلة تركية مزركشـة بالذهب لتلبس في أماسي الخريف الحارة والرطبة وخفاً

مزركشاً بالذهب الأحمر كان ملقياً بين المساند وبين الشراشف عند قدميها.. كاحلان يتزينان بخلخال من الدر بألف ليرة ذهب، ونسيم خريفي جميل يلاعب أعمدة البهو، يرفع ستائر المخمل وينزلها على مهل، والمصطبة المعلقة أمام الباب المشرع تضيء بقمر تائه. قالت أمه للبيك وأناملها تلتقط حب العنب: قد مضى على زواجنا ست وسبعون ليلة وهذا جسمك يزداد نحولاً ولم تعد تغادر الفراش. كانت أخته ممددة على ظهرها وهي تهمس حينما أدركت أن البيك قد غضب من أمه وسمعت الأنياب الزجاجية الملونة يكسرها فوق البلاط. قولي ما بالك الآن؟ سالت الدموع فوق خد أمه. أخبرت البيك أن أخته تسمعها الآن، وأنه يجوب السهل، وسوف يصل الى الهوة بعد لحظات، وأن أخته تتمدد الآن فوق أحجار البيدر غير آبهة لنتوءات الصخر تحت ظهرها. هذه رائحة العرق تنز من ردف أمه.. لا.. من تحت إبطيها. كانت أخته تتابع الهمس. لا بد أن البيك قد هدأ الآن.. لا بد أن أمه تباشر حكاية أخرى. كانت أمه قد أشارت للخادمة أن تغلق الأبواب خلفها. واتركي باب المصطبة مفتوحاً كي نشاهد الشمس غداً. وكان البيك غارقاً في رجاء مجروح: حبيبتي.. أنت كل ما تبقى لي.. أخبريني حكاية، فكانت تقول: أنا جاريتك ولن أتركك فلا تخف واسمع كيف نجوت إذ انه لما أزاح الصخرة خرجت اليه كأنها بنت من بنات الجان، شعرها منتوف، وجسدها ذباح كما خلقه الله، لم تحجب عورتها بل لمت كفيها بين نهديها كي تحجب صليباً ذهبياً يلمع بالشمس الغاربة، فقبل أصابعها. افتحي عينيك ولا تخافي، ثم أنزل البارودة من يده، وأقسم أنه لم يقتل عصفوراً في حياته، فكيف سيؤذي البيك وهو زوج أمي. هيا افتحي عينيك ولا تخافي. نحن أخوة. وكانت أخته

Twitter: @alqareah

ممددة فوق الأحجار تسمع حكاية أمه في فراش البيك وتبتسم تهمس: يا للبلاهة! أية بنت! وأية حكاية! لم يتزوجا إلا منذ شهرين. وكان همسها ينوس على مهل، ونحن هناك تحت شجرة الجوز العملاقة نترقب الكلمات وشروق الشمس حينما انتفضت إخته للمرة الأخيرة. أبصرتنا وجهاً وجهاً.. عيناً عيناً.. أذناً أذناً.. خصلة خصلة. وكانت تبصر حقاً وهمست انه يتجه نحونا.

بعد مرور خريف وشتاء على مرض البيك المستعصي أخبرتنا الخادمة أن أمه كانت تغلي له في كل صباح سطلاً من المياه المملحة، وتذوب فيها عسل النحل.. السكر.. ماء الورد.. الفلفل.. الحبق.. النعناع الأخضر وأربع بيضات ساخنة مباشرة من تحت الدجاجات ثم انها كانت تمزجها بالقرفة والقرنفل، تسكبها في طست واسع حتى تبرد، فيشرب من هذه الوصفة كلما عطش، ينقلب على بطنه، تمسح ظهره بزيت الزيتون الفاتر، تكبس كتفيه بأناملها الطويلة حتى يشهق يقول: لساني قاسٍ كالحطب، فكانت تداعبه بحلو حديثها، تضغط على خاصرته، فيرتعش كالمحموم، ويتخيل نفسه في الليلة الأولى لما دخل عليها. كانت أمه ممددة فوق الفراش ترتجف من البرد رغم كنزتها الصوفية تحت ثوبها الأبيض الفضفاض ورغم الشراشف والأغطية التي نزلت تحتها. دخل البيك. الشعر يلمع. الحزام مفكوك. كان يرتجف أيضاً، لكنه كان مبللاً بالعرق. وفي تلك اللحظة نسي البيك حكايات العودة المنتظرة تماماً. لا بد أن أمه قد نسيته أيضاً حينئذ. أحس به يقترب. قال البيك بينما أمه تفرك كتفيه بالزيت، وتقبل خده، وتؤكد له استحالة عودته ثم تنده لي. أخبرتنا الخادمة وهي تلتهم رغيف خبز ساخن. على عجل ضعي حطبة. بسرعة ناوليني الطحين. أين وضعت المسند؟ حدقنا في

Twitter: @alqareah

شفتيهـا الغليـظتين. أخبرتني امرأة البيك في تلك الليلة أموراً لا تصدق. قالت: البيك يجن بها، وانه سيموت إن علم الحكاية. ذلك أنه كان يركع قرب سريرها طوال النهار، ينام عند قدميها قرب الخف المـزركش طوال الليل بينما نحن نأتي ونروح متحدثين عن هذا الضبـع الهـرم، ربمـا كان هذا ضبعاً آخر، لكن خالته قالت إنه الضبع ذاته.. إنها ذات الأظافر، وأنا أعرفها كان ظهر أمه مثلماً بخدوش عريضة، وقالت الخادمة إنه دخل من باب المصطبة، وان أمه كانت تنام قرب البيك، وان البيك كان يضع فخذه فوق ردفها. وكنا نصدق ذلك. قالت الخادمة انه أتى الى البيت الكبير وطرق باب المدخل الرئيسي بعصاه المنقوشة بالورد، ففتحت خالته الباب. وكنا نصدق ذلك. قالت الخادمة انه طلب يد أخته، لكن أمه تجاوزت القسمة والنصيب، وان البيك ضحك كولد صغير، وان البيك وأمه رزقا بنتاً كغصن البان، وان البنت سحرت الألباب وسحرته. وكنا نصدق ذلك. حين سمعنا صوت أمه المنتحب داخل البيت الكبير. ماذا حصـــل لكم؟ كيف يذهب بكم الوهم الى أطراف الخـــدعـة المستحيلة؟ وسمعنا الصوت ذاته.. صوت المجنح فوق فرسه بين لحظاتنا المضطربة. قالت الخادمة إن أصابع الشك لن تلامس أبداً يقين كون أمه كانت غير مثقوبة يوم دخلها البيك، يا حبشية يا امرأة النحس. وكانت النار تموت تحت الصاج. ماذا حصل لكم؟ رأينا أختـه خلف الشبـاك في البيت الكبـير، رأينا ظل أمه ملتقحاً على الجدار، يرقص مع نيران الموقد، لكنها في قصر البيك. عندئذ أدركنا أن الخادمة ليست خادمة إلا إذا كانت امرأة البيك خادمة إذ ان أمه لم تغادر البيت الكبير مذ رفع بارودته، أطلقها في وجه أبيه، دفع أخاه من دربه، حطم الباب في جنون اعصاره الجامح، اندفع نحو

Twitter: @alqareah

الخلوة، لفّ نفسه بالعتمة.

غطى الثلج المصطبة عند انعطافها الموارب في استطراد مبالغ على غير عادة أمه. ولقد شعرت بذلك، فسارعت الى زمّ شفتيها، تبللا برقا من جديد، تلألأت البثور فوق جبهتها بدمعات عرق رغم ثلج يملأ الليل برداً. تابعت أمه كلامها متجاوزة سعالها الموسمي. دخل النمس من شق خشب من ثقب القبو، دخل من حفرة في أرض القن، طقطق رقاب الدجاجات واحدة واحدة، عشرين واحدة، يمص دماءها حتى الموت ثم لف ذنبه القصير منتحباً. بدأت أمه سعالاً جافاً بينما أخته تستمع اليها حين سأل صوت ما: ولكن كيف مات جده؟ فرمت أمه حطبة في النار، وهرعت أخته الى كومة حطب في الزاوية. أخبرتنا أمه أن جده لم يمت بل اختفى في ليلة سوداء عابقة بالرعد إذ ان الانكشارية اكتشفت مخططه قبل أيام قليلة، فانتشرت خلف كل شجرة تحت كل صخرة، لكن كأنما أرض بلعته أو سماء لحسته. دخل جده الى غرفته عبر باب سري في جدار القبو الشرقي، فيومئذ لم يكن ثمة البيت الكبير بل غرفته فقط بناها جده قرب القبو، أفرغ فيها أحلامه السرية ومخططاته التي جعلت السلطان يرفس الرسول الذي أتاه بالخبر، يأمر الوزراء والجيوش بالسير الى ضيعتنا. طرقت جدته الباب بعنف. سأخرج بعد قليل، لكن أخذت ترفس الباب وتدفشه حتى خرج. رأت جده ملتحفاً بعباءته التي ورثها عن أجداده. غير ممكن، دمدمت. رأت جده متمنطقاً بغدارتين اسبانيتين. غير ممكن. دمدمت. رأت جده يقفل الباب السري بالعوارض، يدقها بالمسامير، يدفش الجرن حتى يغطي كل أثر لغرفته، فأضحت غائبة خلف الاغصان المورقة تماماً. غير ممكن. دمدمت. لكنه يسرج حماره، ويربط أكياس أوراقه،

Twitter: @alqareah

يمسح نصل السيف. غير ممكن. دمدمت جدته متذكرة حكاية فرار جد جده من الجبل. خرج متسربلاً بذات العباءة، خنجرين اسبانيين، أكياس الورق الجلدية، ركب حماره. أخبرتنا أمه أنه اختفى كأن الأرض لحسته أو السماء بلعته. قالت خالته إن جده ترك الغرفة السرية نصف فارغة بعد أن جمع أهم خرائطه المصفرة، بقايا أوراقه من مخطوطات كانت تنتقل من يد محتضر الى يد مشروع محتضر حتى وصلت الى يده من مجلدات بالخط الكوفي الأسود، عبثت بالدهر ولم ترتعش، مرتحلة من أقاليم تجنّ الى أقاليم توشك أن تنام حتى وصلت الى ضيعتنا من مخططات ومخطوطات مؤطرات بلون السوس وطعمه، محفوظات في أكياس من وبر الجمل، من أدوات السفر ثلاث بوصلات واسطرلاب ضخم فكك وصنع في القرن الثاني للهجرة في ضيعتنا ذاتها، له شكل الصندوق، من أوعية فخارية للتنجيم الشهري رممها ودهنها بالطين الأبيض، عثر عليها في خرائب في حي الكروم موشحة بالأخضر اللماع كأنما بورق الخس. وقال صوت ما: لما قال لماذا الكذب؟ كدنا نفجره بنظرات مسمارية. لما استعادت نشيد حرفه المحجوب وأعلنت أن ذلك كان مكتوباً، اختفى جده كما جد جده.. تماماً كأبيه الذي جمع أوراقه المبهمة قبيل غيبته، شرب ركوة قهوته الصباحية، وانتظر الليل. لو كان لي أن أدخل غرفته. همس صوت ما دون أن يدري كيف سمعت أمه كل حرف همس به، فازداد بريقاً. يا للثلج الخابي! كانت تردد أغنية النوم المتعب للطفولة النشيطة، جفّ الريق عن شفتيها حتى الشقوق. إذن هيا النوم يا حبيبي، فقبل خدها. تصبحين على خير. ونظرت الينا نظرة لا تعني إلا أنتم بحاجة الى الموت ألف مرة، وإلى الطواف حول الأشياء ألف

Twitter: @alqareah

مرة ومرة، وإلى التوغل في دواماتي حتى التيه ألف مرة ومرتين حتى تفكوا نصف حرف من حروفه.

قالت أمه إن جدته كانت كسيحة، وأخبرتنا خالته أن جدته لم تنجب صبياناً، وقالت أخته إن جده تزوج مرة واحدة، فعاش مع امرأته سنة إلا يوماً. مستحيل. لكن أمه بدأت تحكي أخبار الحبال المربوطة على أوتار الأيام الصعبة. قرر جده أن يعيد ربطها. اخبرتنا خالته أنه تاه في أطراف المعمورة بعد أن رمى المحدلة وحصل ما حصل. كان يشعر بالمحدلة تحول قلبه على مهل. ضياع. شيء. طعم الشحم. نسي طعم الماء. نسي طعم التفاح. في ضياع نسي معالم ضيعتنا.. الطرق المتمايلة مع خرير رأس النبع، نسي صخرة الغدير، نسي صبايا حي الكروم، نسي كل شيء وتذكر النسيان. في ضياع، نسي التماعة السيف، نسي ركوب الحمار، نسي ذكر الله حتى كانت الليلة السبعون، فلمح بطة تقفز على الصخر وتهز ذيلها كأنما تقول له انظر فوق منظر، فإذا بسراج يضيء عند التل. ذلك أن بعض العباد كان يتعبد في الجبال. وكان يأوي الى ذلك الجبل زوجان من الحمام، وكان ذلك العابد قسم قوته نصفين. ذلك ما بلغ أسماعنا مع حكايات واسعة الخيال، فان العابد قسم قوته نصفين، وجعل نصفه لنفسه ونصفه لذينك الزوجين من الحمام، ودعا العابد لهما بكثرة النسل، فكثر نسلهما. ولم يكن الحمام يأوي الى غير الجبل الذي فيه العابد. وكان السبب في اجتماع الحمام بالعابد كثرة تسبيح الحمام، وقيل إن الحمام تسبيحه سبحان خالق الخلق وقاسم الرزق وباقي السماوات وباسط الأرضين، فسار جده يمشي نحو التل والسراج يبتعد حتى سقط على ركبتيه، فأبصر على ضوء نجمة نصف ميتة كيسه الجلدي مطروحاً أمام عينيه، فأخرج ورقة

Twitter: @alqareah

متعفنة، وقرأ كتاب الخلوة حتى هز الخلاء بصرخات سبع محشور، أنا السراج كما السراج. قالت أمه إنه غداً يمشي فوق الفجر، يسير كأنه يطير، وكأن الفجر سجادة تحت قدميه، فأبصره زوجا الحمام وعباءته تلف الشمس بالليل، فعادا الى العابد بالخبر، فقال لا أصدق حتى أرى. فلما رأى شهق ومات وتحول زوجا الحمام الى زوجي خيول، مرقا في الخلاء كالبرق، اختفيا يبحثان عنه. وربما كانت تلك حوافرهما الباقية عند باب الخلوة. صوته كان يهزّ، يهتز، قامته تعلو، تمتد، فأي المجانين حكى؟ الطائر واقف على الصخرة في الليلة التالية، وإذا بجثة انسان جرفها الماء حتى أسندها الى صخرة قرب التوتة، وقفت تلك الجيفة قرب صخرة وارتفعت لانتفاخها، فدنا طير الماء وتأملها، فرآها رمة بشري، وظهر له فيها ضرب السيف وطعن الرماح، فقال في نفسه إن هذا المقتول كان شريراً. يكثر التعجب في تلك الرمة حتى رأى نسوراً وعقباناً أحاطت بتلك الجيفة، وأخذت تمزق عباءتها، عباءة جده بل عباءته بل عباءة العابد لأنه لما رآه ظن نفسه ينظر في صفحة النهر بل عباءة شيخ الخلوة بل عباءة واحدة والأمر واحد. أية حكاية كاذبة! لكن خالته حلفت بدمه أنها رأت ذلك قبل المنام، وأن حكاية كهذه لا يمكن أن تكون كاذبة. وكان الثلج قد غمر ضيعتنا، أخذ يكسّر أشجار التفاح تحت وطأة غضبه ثم ان الانكشارية طوقوا ضيعتنا، أعملوا نارهم في التلال، وسيوفهم خلف رائحته، هو هادي خطانا.

بعد سقوط أخته في البئر والسل الذي عشش بين رئتي أمه، بعد أن طردت خالته من البيت الكبير ولجأت الى امرأة البيك، بعد أن كتب جدي وصيته، بعد أن كذبت أمه عليه ثم صدقت بشأن موته، بعد نبوءة الغراب وصيحاته الثلاث، بعد أن وجدنا عمته ميتة في

Twitter: @alqareah

جرن الماء مع خالته وأمه، بعد انغلاق أقفال الميتات الغريبة تماماً، بعد اختفاء الحفرة تحت الجرن، بعد اكتشافنا الباب السري الذي يقود الى غرفته والأكياس الجلدية مخبأة في أرض الخلوة تحت العتبة، بعد أن عثرنا على آثاره قرب شجرة الجوز وعلى خيوط من عباءته المقلمة بالأحمر والأسود عالقة بأشجار الحرج، بعد أن لون دم فرسه فجر ضيعتنا وجعل صهيل حصانه ليل حكايته يجن، بعد ميتات لا تعد، وضباع تموء كالقطط، وذئاب تقفز في الهوة منتحرة، والبيك يقع في فخه، بعد جنون امرأة البيك، تسميمها فاكهة البيك وانتظاره خارجاً كي يجبر البيك على توقيع الوصية ذاتها، بعد العفو السلطاني الكاذب، بعد أن كسرت أخته صخرة الغدير برأسها، وذاب الثلج، وذهبت الخماسون، وبعد الحكايات يفتق بعضها بعضاً، شعرنا بأنه أقرب الينا من حبل الوريد.

بدأت فرق الخيالة التركية تدقّ الصخر كما كنا نفعل أيام الطفولة خائفة تتوغل بين أشجار الجوز في طريقها الى الخلوة، فترتعش خوفاً، وتبدأ بالغناء كي تخيف الذي لا تدرك كنهه. وكان البيك على حصانه الضخم يصول ويجول، يصرخ ويشتم بينما دماء الثور المذبوح تتدفق ساخنة في الاسطبل، والخادمة تضع الثلج على رأس مولاتها امرأة البيك، ترتجف في مستنقع فواح غاص به البيك كي يتجنب التفكير في زعم امرأته المباغت، لكن خالته ذهبت الى امرأة البيك، وجعلتها تنام على بطنها كي تتأكد، فكشفت الخادمة عن ظهرها. يا للهول! غطت الخادمة مولاتها بالشراشف الرقيقة البيضاء التي طرزت عليها عناقيد عنب متوسطة الحجم، وانخرطت امرأة البيك في نوبات بكاء متلاحقة. عرفنا انها خرجت عند الظهيرة من غرفة نومها، وقبل أن تصل الى الحمام انقضت

Twitter: @alqareah

عليهـا جمـاعـة، فضربوها وأخذوها معهم. قالت امرأة البيك إن الكهف كان مظلمـاً، ولكن من الصـوت كان واسعـاً جداً، كانت الشموع تلتمع في آخره، كان آخره بعيداً. قال أحدهم: انتظري هنا. وعندئذ فقط لمحته غارقاً في بركة بمستوى الأرض حتى خصره ونور القمر يسقط من حفرة في الصـخر فوقه تماماً. لذا لم أتبين وجهه جيداً، لكنه كان هو بالتأكيد. وكان جسد البيك ينتفض مع كل همسـة من امرأته المحمومة، يوشك أن يتقلد سيفاً ويخرج، فتعيـده توسـلات الخـادمة. ذلك أنها كانت خادمة ولكنها حارة أيضـاً. داعبت يد الخـادمة كتف امرأة البيك، وضغطت عليها، فنظرت اليها مولاتها بحنو جعلها تشتعل دفعة واحدة، تتمنى موت البيك، تنهار في نحيب متواصل حين دخل البيك. أخبرتنا خالته أن البيك جاء البيت الكبير مع فرقة خيالة، فطرقوا الباب ثم أطلقوا نار بواريدهم عليه، لكن أمه وقفت تسد الباب بقامتها الرفيعة. قالت أمـه إن باب غرفته له مفتاح واحد. دون المفتاح لا يفتح الباب، والمفتاح في بطني. أخبرتنا خالته أن البيك عاد خائباً، وأن أخته جلست على عتبة المصطبة تضحك كبلهاء. فركت الخادمة كفيها بدهن له رائحـة العنبـر، وقعـدت فوق مولاتهـا تمسـد فخـذيها القاسيتين. قالت امرأة البيك للخادمة: أخبريني ماذا حصل بعد ذلك بعد أن هرب منهم وقفز فوق الاسطبل. هل قفز فوق قرميد غرفتي؟ لكن الخادمة ظلت صامتة، فقالت امرأة البيك: أتعلمين ما علمت يا جاريـة النحس؟ قولي يا مولاتي. رأيت في المنام امرأتين نائمتـين، فقـامت واحدة من السرير، وهيأت حوائج الحمام التي تحتاج اليها وأخذتها وراحت الى الحمام، فلما دخلت الحمام قلعت ثيابها، فصارت النساء جميعاً ينظرن اليها ويسبحن الله عز وجل

Twitter: @alqareah

ويتأملن فيما خلق من الصورة البهية، وصارت كل من جاءت من النساء على الحمام تدخل وتتفرج عليها، وشاع في البلد ذكرها، وازدحمت النساء عليها ثم ان صوتاً في المنام نده لي أن أخرج من الماء الفاتر، فاستيقظت مبللة بماء ساخن وأنا أقول هذه الليلة الثالثة والتسعون وثمانمائة منذ أن دخلني تركني عند الظهيرة بين أعشاب قصيرة، غطاني بثوب الريش، قبّل كاحلي المحروقين، ذهب، وأنا هذا الغرام يقتلني، أمسى خياله يهجرني، وزوجي ثلج جليد. أين هو الذي أضرم حريقي؟ والخادمة كانت تبكي فوق صدر مولاتها حين دخل البيك. قالت خالته إن ذلك كله كان مكتوباً منذ زمن بعيد، وانها ذات صباح بارد معتم وبينما المياه تدلف الى البهو والمصاطب تطوف بالمطر الغزير، فكرت أن تدخل غرفته لتجلب بعض الأغطية، فعثرت بينما تفعل ذلك على ورقة تحت المخدة ملفوفة بقميص قديم، فقرأتها، وكانت ممحوة، لكنها تبينت بصعوبة نبوءة منام ستراه امرأة البيك بعد ثمانمائة وثلاث وتسعين ليلة عقب رؤيتها له للمرة الأولى عائداً من الحقل، مزاجه مزاج رجل غزلي. هو حلم تخبره للخادمة التي تحلف بدماء مولاتها أنها ترى نفس المنام دوماً وتدخلان معاً غيم حبهما الدفين حين دخل البيك. ألف لعنة! وجهه أصفر كلقطينة يابسة، الدم يخرج من ثقب صغير في كتفه، وفي عينه رعب بحجم المعركة التي بدأت في ذلك العصر قرب رأس النبع وانتهت في وادي القرن. وأية معركة كانت! فرق خيالة تكر تفر، ووحده مع عصابته يهرب ويضرب، معركة ستذكر، دحرجت رؤوس دزينة من الانكشارية، فتقت صدور دزينة أخرى، ولفت ضيعتنا بأهازيج انتصاره المتتالية.

جعلت وقعة التل عساكر الانكشارية تبتعد الى خلف النهر

Twitter: @alqareah

وتنصب خيمها في السهول بعيداً عن الأشجار، لكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ ان النيران ولعت الخيم والليل باشتعالات قلقه قبل أن تزيدها رياح عبادته انشراحاً، فتهدد قصر البيك. أحس بالنار تسلخ وجهي. قالت امرأة البيك بينما البيك يدخلها، والهواء يعبث بستائر النوافذ المشرعة، فابتسم البيك ظناً منه أن النار تخرج من جسدها شبقاً لما ينقر بفحولة أصابعه عند الوركين الناعمين وتحت الابطين. ثمة حريق. ولقد كان حريقاً. وثب البيك الى الباب. رأى الاسطبل يتحول حطباً. شمّ رائحة الخيول المشوية، وأخذ نقيق الضفادع يصمت أمام خوار الأبقار المحاصرة بالنار، وليل ضيعتنا يصبح نهاراً، والدخان يحجب القمر أم كان يذكرنا بالقمر؟ مدت أمه ساقيها بجوارنا. سمعنا طقطقة مفاصلها مفصلاً مفصلاً. عرفت أنه عاد، فلا أحد يتجرأ على دخول غرفته، ودخلت، فلما لم أجد أحداً سعيت الى الباب. أخبرتنا خالته حكايات كثيرة، وصدقناها كلها. عندما بدأت خالته كلاماً آخر يبدأ بزيارة للبيك الى البيت الكبير، وينتهي فوق المطارف بين الشراشف مع أمه، تبين لنا أنها حكايات كاذبة ولكن أي منها إذ ان الخلوة بقيت مغلقة والبيك أرسل رجاله ليقطعوا أشجار التوت في حقوله مذ تناهى اليه خبر الشائعات بين جذورها، وقال مكارٍ في لحظة غضب إن بازارات اسطنبول وأزقتها تعرض للبيع خرائط هي خرائطه، مخطوطات هي مخطوطاته، اسطرلاباً هو اسطرلابه بينما زعمت جماعة أنها عثرت على فرسه الليلية ممزقة أشلاء فوق صخور وادي القرن إذ ان الانكشارية أمسكت به يحاول الاختفاء، فأرسلت خلفه الرماح والفؤوس، فحاول أن يتجاوز الصخور بقفزة جبارة عجزت عنها فرسه الليلية المنهكة، ولكن البيك أخبرنا أنهم لاحقوه عبر سهول

Twitter: @alqareah

البقاع، وقطعوا جبال الباروك في أثره، فانحدر من المعاصر الى المرج ثم تسلق التلال ونزل الوديان حتى وصل الى وادي عينبال، فما زالوا وراءه حتى أدركوه إذ ان التعب أسنده الى جذع زيتونة، فأسقطوا شباك سمك جلبوها من اللاذقية فوقه. قالت الخادمة إنهم ظلوا يسوطونه بجلد الثيران والحديد ألف ليلة، فكان صراخه يصدم جدران الأنفاق المنخفضة، ويسمع في أطراف الامبراطورية الشاسعة. قالت الخادمة إن قطعة من صراخه عربشت من القبو، حطمت جدار زنزانته، سقطت في البوسفور، شعت نجمة بحر، قتلت وزيراً يسبح في العتمة، التصقت بوجهه. قالت امرأة البيك إنها رأته في المنام يغطسونه في برميل مياه مغلية، فكان يشهق بحبها. من أجلك غصباً عن الله أعبدك. قالت امرأة البيك إن الباشا لما عاد من الاستانة أخبرها أن منامها كان نبوءة. إنه حضر عمليات التعذيب وكيّ اللحم مزكم الأنف. جف الريق فوق شفتي أمه. تململت أخته في الزاوية. كم وحل فوق بارودته وسخة. للمرة الأولى. ادركنا أننا لم ولن نبصر ظله وإلى آخر الأدوار والأكوار.

ماء العرائش يقطر المصطبة، يجعل الطوال قصاراً. رأس النبع يفور، وتراب الحقول أصبح وحلاً انغرزت فيه أشجارنا. لم نعرف هل سيبقى التفاح شهراً آخر، ولكن الخادمة أخبرتنا رغم رعود السماء المعتمة والليل الليلكي الذي غمر أبصارنا قبل نهارات مسودة بغيم ثقيل إذ ان العاصفة سكنت ضيعتنا، تحطم أيامنا ومداخننا في غضب اسطوري مشؤوم محا شجرة الجوز بأول هبة ريح كشافة، قلب شجر التين، غرس أغصانها في التراب، شرع جذورها للطير والغيم، ترك للبئر صراخ الذئاب المفجوعة بصغارها، وجعل الضباع تسير في الاتجاه المعاكس للمرة الأولى في تاريخ

Twitter: @alqareah

ضيعتنا إذ ان رجال البيك محوا الغابة. كنا نخرج مع الفجر والفؤوس كي نحطب من شجره ما يحمي القصر من جنون الطقس. جذبت امرأة البيك الخادمة اليها غارقة بكنزات الصوف وبالجوارب السميكة، ثيابها ملتصقة بها. صفي بعد إذ ان الخادمة كانت تدفنها باللحف وبأغطية الصوف وهي ترتعش وأسنانها تكز. هذا البرد، هذه العاصفة، هذا الموت، فعاجلتها الخادمة بدوائها المفضل. قالت أخبريني من تلك العاشقة.. آهة الضياع العميقة، لها رائحة المسك والدم. ماذا أقول وهذه الحمى تدحرجني، تجلبني وتأخذني، وهذه مطارفي ولست أملكها. ذلك أن امرأة البيك كانت تقرأ الشعر القديم في الصباحات الخريفية، تدخل جلدي وتسكنني وتمصني كشفتيه والنار، وذلك أن امرأة البيك كانت تتألم عندما تتنفس، وترفض أن تتبرم من قلب يشتعل على مهل فوق جمرة حبه. أتعرفين أنهم ذهبوا للسلطان بالخبر، فانطلق الى شرفته كالممسوس قائلاً: أتقصدون أنه واحد هذا الذي يقلق عمرنا؟ فأجابوه أن لا لا أبداً مولانا، ولكن الناس تصدق ذلك، فالمسألة يا مولانا هي أن كل نار تحرقنا تنسب شرارتها اليه. إذن اقتلوه وقولوا للناس إنه مات، قتلناه، حرقناه، قطعنا رأسه. اعرضوه ممزقاً في الشوارع. اصلبوه على الجدران. عندما دخلت الانكشارية ضيعتنا تجر خلفها عربة مقفلة أعلنت أن ذلك سيكون عقاب كل من يمشي في أثره. فتح باب العربة. سمعنا أنين الخشب، وانطلقت جثته في الهواء، هوت أمام أقدامنا، فالسلطان قال إذا كان وهماً فلنقتل هذا المدعو وهماً ولننه المهزلة. ولم ينظر الى الأشياء كما سينظر اليها الناس إذ انه لما عاد وانقض بخراف بللها بالكاز، أشعل فيها نيرانه، سد عليها الدروب، قادها الى خيم الانكشارية ونحو اسطبلات خيلهم. أطلق الناس

Twitter: @alqareah

أهـازيج فرحه المقدس، وأنشدوا ثواني عودته الهائلة من العالم الآخر إذ انه لا يموت إذ ان أحداً لن يقطع رأسه، ولكن من خلف هذا الخبـر ومن تحت ذاك، طلعت الخـادمـة بفرسها ودخلت في الحكاية الأخرى معلنة أن ذلك كله إشارة بسيطة، وبرهان دافع على كلام مولاتي امرأة البيك وجدّتها واسعة الخيال قبلها، أي انه لا يمكن أن يموت، وإذا مات حقاً فلأن أحداً لن يقدر أن يعيش بدون رؤيتهـا. كانت ترتعش من البـرد تحت الأغـطية الصوفية الثقيلة، تقول للخادمة: ماذا حصل بعد ذلك؟ ماذا فعل للبيك وأنا أنتـظره تحت. وقد أشعل النار في الجدران؟ والخادمة تفرك بطن مولاتهـا بالزيت الساخن. هنا لامسني بيده الخشنة، هنا رميت البرية، هنا وضع غدارتين، هنا أغمد خنجره، هنا مددته مرتعشاً كطفل يتوق الى حليب أمه، هنا أعطيته ثديي عندما ارتجف على حافة انهياره المكتوب، فكشف في عينيه أمله الوحيد، فسحبته من ساقيه الى جسدي، أحرقته، قبلت خده حتى استفاق.كان يغيب ويأتي لما جذبته الي للمرة الأخيرة، وكان يفوح برائحة ورد الجبال البعيـدة، براز خوفـه، ميـاه مستنقعـات تجواله، سموم ثعابين، ضحالة حليب ألف جارية تعاقبت عليه وسقطت قرب تردده الجارح لا لعجزه بل لخوفه إذ انني كنت أحيط به أينما رحل، فوق فرسه، تحت سمائه، أمام عصابته، مغمداً سيفه ببارودته إذ انه كان بعد كل غزوة يعـود الى كهفـه المعتم ليفـرغ حقده عليهم في الصـخر القاسي.. كل هؤلاء الذين دفعوا به بعيداً ودفعوني بعيداً لكن في الجهة المعاكسة. كان صخر عزمه القاسي ينضح حقداً، وكان كلس كهفـه وحـده هناك يمتص هذه النقمة الوحشية ويتصدع.. تلك النقمة الوحشية التي تفجرت ذات صباح بخردق غضبه، نسف

Twitter: @alqareah

رأس أبيه، ترك خنجر اعصاره المجنون يذبح أخاه وأخته. خالته رمت نفسها في الموقد، عمته رمت نفسها في البئر. وحده كان يقضي ليالي حنينه الى عطري الخزامي في أساوري والعرق فوق عنقي، أضمه إليّ في البرد، يشتعل شوقاً الى همساتي في أذنه.. الى أغنية نومه الرقيق.. إلى فخذي، يقع فوق بطنه على مهل. وكان يتوغل في بركة صقيعه المتعالي علّه يطفىء جمرات اللوعة الفتاكة، فكان الجليد يغلي تحت نار لم تعرفها الأرض، لم تتنبأ بها السماء عندما أنشدت له داخل حلمي المسائي نائمة قرب سريره. في تلك الليلة المليئة بغبار العاصفة الميتة، جنّ الظلام، هاج الوجد، باح الدمع، ناح الوصل، فانطلق من البركة يضرب رأسه بالصخور حتى غشي عليه، فوقع داخل دمه في هاوية حلمي، فأبصر نفسه منعكساً فوق صفحة الدم نائماً في غرفته محاطاً بخرائط سفره المستقبلي، وجزمته تلطخ اللحف البيضاء، فانقلب على جنبه الأيمن، وحلم أنها عادت، تركت صاحباتها، مرقت أناملي على فم حماره، سألته: بالمجرفة؟ أهذا غزل؟ قل بالغيم مثلاً أو حتى بالريش، فابتسم وظل صامتاً، ففكت أسوارة تبرق كالماء حول معصمها، وأخذت يده بين يديها، فأنشد لها بينما تبتعد ذات الأغنية: يا أم العيون مكحلة بالمجرفة حبك بقلبي مثل لبطات البغال، فضحكت وطار شعرها. فلما أفاق من نومه تذكر أنه لم يسألها عن اسمها أو بيتها، فسأل أخاه، فقال: بعيدة عنك يا أخي.. غداً تزف الى البيك، فتكوم داخل القبو قرب حصيرة عمته، وسألها: ما رأيك يا عمتي؟ فقامت الى ثقب في الجدار، وأخرجت منه كيساً من الجلد، وقالت: الآن تعرف ربما لماذا كتب جدك وأوصى أن يكون القبو لي، ثم أنها شالت من الكيس حرزاً علقته بصدره وقالت: خذ حصان أبيك وسر إلى وادي القرن، فقبيل

Twitter: @alqareah

حلول الليل ستقبض عليك عصابة من قطاع الطرق، فقل لهم إنك من أولاد زعيمهم واسـأله ما أردت، عنـدئذ لاحظت الخادمة أن مولاتهـا كفت عن الارتعـاش، فتـوقفت عن فرك ظهرها بالحليب المتخثر، وقبلت كتفيها. عندئذ سألت مولاتها أحقاً كانت الحبشة تشتعل لما هربت، فجعلت الخادمة تمص شفتيها وتتهجى آهات العشق المجنون حتى نامت امرأة البيك. وعندئذ أخبرتنا الخادمة بينما الثلج ينهمر كالتفاح: خرجت الى المصطبة ملتحفة بشرشف أحمر، فقفز عن القرميد، أخذني بين ذراعيه، ذلك أنه كان يقبل فمها بنهم، ويقضم أسنانها كالجوز، يهمس في أذنها كلمات الوحدة القـاسيـة، فكانت تغرق في حمى حبه الأجاج ورطوبته الساخنة وجلده المحروق بشمس رحلاته عبر المسافات هو الذي كان يشعل الغيم ويطلق العواصف من أسوارة في معصمه كي يصل الى تلك المصطبة.

عند العصر متحومين حول المتة تسكبها خالته كان بامكاننا أن نتقصى آثار ظله فوق صوتها المضطرب إذ انها كانت تقول ما لم يقله احد.. أي انه لم يجلب شمعته الى ليلنا، ولم يظهر من خلف أحجبة العتمة، فكانت تبكي وتخبرنا أن الانكشارية كانت تحمي المكارين من هجمات قطاع الطرق، فلا نموت جوعاً إذ ان الانكشارية كانت تسهـر الليـالي، تشعـل النـار وصراخ القصب كي تطرد الجراد بالأسلحة الصوتية المرعبة إذ ان الانكشارية كانت تسور ضيعتنا بأجساد فرسانها الأبطال ملبية أوامر الحضرة السلطانية الشريفة، فلا تجتاحنا رياح قطاع طرق مبعثرين بين تلال مهجورة ينتظرون الفرص السانحة ليسرقوا بيوتنا، يهتكوا عرضنا، يحطموا الخلوة، لكن الانكشارية كانت تأتي في اللحظة الأخيرة، تنقذ جده من رماح

Twitter: @alqareah

قطاع الطرق، تحطم عصابة تخطط لمهاجمتنا، فالحضرة السلطانية لا تريد إلا الخير لنا. أولم يضرب السلطان رؤوس أعدائنا ويرمي في أعماق الأرض قطاع طرقنا ويرسل الى أطراف الامبراطورية جنده، بحثاً عنه حينما أخبره البيك أنه ضاع وأنه من رعية الحضرة السلطانية المخلصين؟ قالت خالته إن السلطان أثار الهلع في حاشيته، فالتفتوا جميعاً الى الباب العالي يتلمسون رقابهم. كيف يضيع واحد من رعيتي؟ قالت خالته إن السلطان نتف شعره غضباً، وكاد يأمر بتصفية حاشيته. أوتظنون أنني مثل جدي الأقرع أحكم الجواري عوضاً عن الامبراطورية؟ كان السلطان يصرخ مغتاظاً، وظل يضرب الأرض بقدمه حتى التوى كاحله، فشعر بصداع فتاك، وسار الى قصر حريمه. المتة حلوة. ولذا كان علينا أن ننتظر فترة كي تغادر خالته صمتها وتكمل الحكاية، فعبأنا الوقت الضائع بنظرات ضائعة الى العرائش تخضر والعشب ينبت. أخيراً سعت الانكشارية في البحث عنه سعياً حثيثاً، فلما وجدوه أخبرهم أنه كان في طريقه الى حوران كي يشتري بعض القمح، فقبض عليه قطاع الطرق، أشبعوه ضرباً ثم أنهم سرقوا حصانه وعباءته وسيفه، وتركوه هائماً على وجهه، فأخذته الانكشارية الى قصر السلطان، فرحب به، وأجلسه على يمينه، وسأله عن حال جده، فقال إنه لم يسمع منه منذ زمن طويل ثم ان السلطان بالغ في اكرامه والاحتفاء به موغراً صدور الوزراء عليه. فلما حان الوقت وآن موعد خروجه من الاستانة خلع السلطان عليه خلعة سنية تخصه بالشخص وأتبعه بقافلتين من الأطعمة والهدايا وقافلة أخرى للحراسة. واتفق أنه كان خارجاً من القصر عند الفجر والضوء بالكاد ينير الأرض بينما جماعة تخطط للنيل من السلطان، وكان هو

Twitter: @alqareah

طويلاً أسود الشعر؛ والسلطان طويل، أسود الشعر أيضاً. وشاعت المصادفات أن السلطان خلع عليه عباءته قبل ليله، فلما رآه المتربصون بالسلطنة قالوا: هذا هو أصبح بين أيدينا، فأطلقوا نبالهم تلمع رؤوسها فخرجت تبرق من ظهره. وقالت خالته إن السلطان أقام له دفناً أميرياً يليق بسلالة جده المئة مرة، لكن خالته لم تصمت بل سرعت سردها، وأعلنت أن السلطان خصص لأمه معاشاً شهرياً مدى الحياة، وبعث من يغريها بالمضي الى الاستانة بعد أن أوصى والي الشام بها، فرفضت عمته هذه المنحة الكريمة، وادعت أن دمه في عنق السلطان الذي لم يشبع من دمّ جده وأبيه.. الأمر المشحون بالخيال والحقد كما تعرفون لأن جده لم يشنقه السلطان، لكن عمته كما تعلمون تماماً ظلت عانساً طوال حياتها بعد أن رفضها البيك المقرب من السلطان مفضلاً عليها أخته. وهنا أصدرت خالته صوتاً متألماً إذ ان الماء المغلي أحرق لسانها، فارتكبنا خطأنا الدائم، وبدأنا نضحك بأكثر الأشكال انفلاتاً حتى رمت القرعة من يدها وقالت: أصلي لله أن يأتيكم بالغد يمزق مؤخراتكم، فقلنا: ولكنه مات، فتلعثمت، اصفرت، اخضرت، كزت أسنانها، أغمضت عينيها، ارتعشت، وربما أخذت تلمحه.

حصل ذلك عندما بدأ زغب فضي ينمو فوق ذقن أخته. أتكون رجلاً؟ فأخذنا ننتظر لحظة غيبتها الموشكة تبعاً لما قالته لنا ليلة غاب خلف الخلوة.. أي ان الرجال رجال لأنهم يختفون، والحريم حريم لأنهن يخبرن حكايات غيابهم الملغز. واحترقنا ننتظر غيبتها كأننا نسينا أن الزغب لن يفصلها عن المطبخ. عندئذ بدأنا ننتظر حكايتها، ولم يحصل أي شيء. قالت خالته: اختفت، وبدأت تحكي من الخفاء حكايتها. ذلك مستحيل لم نفهمه نحن، وكذلك ازواجنا.

Twitter: @alqareah

قالت خالته إن أخته اختفت، وبدأت تحكي من الخفاء حكايتها، وان منطق سردها هو منطق البنت بزغب على الخدين، وان أحداً لن يدخل حرفه إلا إذا وضع حساب الجمل أمام مرآة خياله الثاقب، وأطلق على كل شعرة رقماً واحداً، وأخذ يفهم الأشياء والعلاقات بأن يستبدل الحروف بأعداد، فإذا بنا نضيع أكثر فأكثر لأننا لن نفهم هذه الخزعبلات أبداً، لكننا لم نعد نشاهد أخته، لم تعد أخته تصحبنا الى صخرة الغدير، لم تنزل أخته إلى الحقل اليوم، لم تشعل أخته السراج في غرفته الليلة كعادتها منذ اختفى. قالت سيعود، سيرى الضوء ويعود. لم تضع أخته خبزاً للحمام على المصطبة، لم تكنس الدار منذ أيام. أوراق العنب اليابسة تغطي المصطبة. اختفت رغم أنها امرأة. لا بد أن البيت الكبير يقع خارج قوانينه ذاتها مما كان سيهدد بنسف كل شيء، ولكن هكذا فقط سنفهم ما يجري. أعلن ذو نبرة ذكية. ولكننا بالطبع لم نتفق معه. هناك خطأ ما في زاوية ما. قالت خالته إن أخته اختفت، وانها تأتيها في المنام مكفنة بالثلج تروي لها أحداث سفرها في العتمة خلفه. قالت خالته إنه لما رأى أخته انقض عليها يعانقها. حصل ذلك عند المغارة خلف النهر لما كان عائداً من فجره خلفه عصابته إذ جفل حصانه فجأة ولمعت أمام عينيه فرس أخته الصهباء، جاءت كي تشاركه قدره. قال لها إنه ظل شهوراً ينتظر انطفاء النور في غرفته كي يرجع لكنه كان يخاف من كمين. وفي هجوم ما منعها أن تقاتل، فقد يصيبك رمح، فسبقته الى المعركة، ونبهت القافلة قبل أن يشرع سيفه، وبدأ كلام خافت: عدوه بين أفراد عصابته. وبعد يومين فقط أعلنت أخته أنها تتحداه في مبارزة بالسيوف حتى الموت، انغرز السيف بالكتف مباشرة، استدار السيف كثور هائج، فحطم

Twitter: @alqareah

اضلاع الصدر من أول دورة، وثقب العظام حتى الظهر، في الدورة الخامسة. عندئذ خرج السيف مخضلاً بدم قلبه الممزق، يبرق كشمس حمراء في يد أخته. قالت خالته إنه لحظة موته شنت فرقة من الانكشارية هجومها العاتي، فالتحمت عصابته تحت قيادة أخته، ودحرت الفرسان المدججين. قيل إن أحد أفراد عصابته هو الذي رماه برمح من الخلف بينما يبارز أخته، فخرج الرمح يلمع من بطنه، وخدش بطن أخته. قيل إن أخته كانت وعدت القاتل المتيم بها بيدها، فأعادت الوعد ثانية، ولكن مع آخر، فهوى القاتل قتيلاً. وهكذا حتى امحت عصابته تماماً إذ ان أخته تكفلت بالأخير. قيل إن الأخير لما نفذ جريمته بالقاتل ما قبل الأخير تذكر أنهما توأمان، فتكوم يبكي داخل الكهف مثل أنثى ملطومة، فاشتم عطر الورد المميت وأبصر أخته تدخل وسيفه خلف ظهرها، فتمكن منها، وأوقعها أرضاً ثم انه أخذ السيف من يدها مقهقهاً. فلما نظرت أخته الى وجهه عرفت أنه هو هو هو لأن الواحد هو الواحد. قيل قطعها شقفاً بحجم الفئران بل بحجم الجرذان، وقيل إنه لم يقتلها بل رفع سيفه في الهواء وطوح برأسه، تدحرج يقرقع فوق الصخور حتى غطس في النهر، فالتهمته الأسماك. هذا ما كان من أمر رأسه. أما جسده فلفته أخته بردائها وهي تبكي ثم رمته في حفرة بعيدة وهي تضحك. ألف لعنة على هكذا رداء. قيل إنها رمته في الكوة خلف الجرن وأحكمت اخفاءه عن العيون، وقيل إنها لم تلفه بثيابها ولم تحرق جثته لأنه لم يقطع رأسه بل رأسها، وقيل إنها عرته من ثيابه وهو نائم ثم أخذت الثياب ورمتها قرب الخلوة ثم عادت الى البيت الكبير، فأيقظت صهره من النوم. قالت له حبيبي أسرع قد آن الأوان. تعرف الخربة في حي الكروم؟ حسناً البيك ينام هناك عارياً

Twitter: @alqareah

في العتمة وثمة حطب قربه. أحرقه وارجع بسرعة إذ يجب أن أذهب اليه، فهو ينتظرني قرب الخلوة كي آخذ له حماره، فانطلت الخدعة على صهره، فذهب وأحرقه بنار حامية. قالت خالته إن ذلك حصل بعد ليلة من اختفاء أخته. قالت عمته إن ذلك حصل بعد ليلة من اختفائه. وأما أمه فأخبرتنا: لن يقتل إلا معلوكاً بأنياب ذئب غدار مبلول الوجـه بماء النهر شبه نائم، وأما أخته فتقع عن السطح فيثقبهـا قرن ثور كان يبحث عن جرسه دون جدوى، وان خالته ستبكي ثم تنسى أنها حية وتترك أمه تدفنها وتبقى عمته التي لم تكن على الاطلاق، فكيف تبقى إذ ان أباه كان وحيد جده وجدته، لا اخـوة ولا أخوات. قالت خالته إن أخته تجوب الليالي باكية لأنها أضاعت قبره، وقالت عمته إن خالته كاذبة حبست أخته في غرفته في البيت الكبير، وزعمت ما زعمت إذ انه لم يكن يحبها إذ انه أحب أمـه ولم يحب خالتـه رغم أن الأخـيرة كانت ترضعه وأمه كانت تضربه.. رغم أن خالته أطعمته جوزاً ولوزاً، وأمه أطعمته ضرباً. ذلك أنه شاهد خالته مرة تسوط أخته بقضيب رمان، فأقسم بدمه ودم جده المسفوح. لم نعرف ماذا أقسم وخالته لم تعرف. وحدها عمته قالت إنه أقسم أن يقتل خالته بعد ليلتين من موت أخته.

خلعت خالته باب غرفته بينما أمه تخبرنا أن عمته لم تكن عمته بل كانت أخته من أبيه، فحينما تحطم باب غرفته وراسها في القبو، حاولت أن تسحبها، فسختها من عنقها، وأما ما حصل حقاً، فأمر آخـر تمـامـاً إذ اننـا دخلنـا القبو كي ننظفه مساء موت عمته، فاكتشفنا أن أخته كانت قد سبقتنا مستعملة الباب السري إذ اننا وجـدنـا الجـرن في الزاوية المقابلة. قالت أمه إن أخته لم تلمس الجرن، فأقسمنا أن أحداً منا لم يقترب من حصيرة عمته، فكيف

Twitter: @alqareah

نزيح الجرن من مكانه. هذا قد يفسد كل شيء. ثمة شيء ناقص هنا. لا. هذا لا يجـوز. فكنا نشاور، نفكر، نحزر، نستنتج، نتهم دون فائدة. ربما تكون عمته فعلت ذلك، وخبأت الأكياس في مكان آخر، لكن هذا كان مستحيلاً لأننا لما أخرجنا عمته من الجرن كان الجرن مكانه يسد الفجوة ويحجب الباب السري. عندئذ اقترحت خالته فتح الباب السري. قالت أمه: لا. غير ممكن. المفتاح في بطني. فلما دخلنا غرفته ووجدناها فارغة تماماً تبين لنا أنه وحده غيّر موضع الجرن، فمن غيره يستطيع ذلك؟ أخذ كل شيء، لكن خالته طلعت بحكاية ناقصة لأنها أكثر من كاملة عوض أن تتقن كذبتها وتفعل العكس، فادعت أنها رأت عربة غريبة بحصان واحد متوقفة عند الضفة بينما جماعة غريبة تقدم التعازي في جنازة عمته ثم تغيب عن البصر دون أن ترجع الى العربة حتى العصر، فأين كانوا ثم انها شطحت بعيـداً وقالت إن هذه العصابة هي عصابته خرجت من تحت ثوبه، قتلته لأنها ضدنا، جاءت وسرقت غرفته لأنها.. وقبل أن تنهي كلامها، ترمي منديلها على الأرض، تقعد عليه وتنام. قلنا إن عقلهـا طار. شخـرت باستنكـار، فلما حملناها الى البيت الكبير، صرخت بنا مهددة، وقالت إن أخته ليست أخته، وإن أمه ليست أمه، وإن خالته ليست خالته بل هي أمه بينما أمه هي خالته. وأما عمته فجارية محتالة جاء بها البيك هدية للباشا، فقدمها الباشا الى أبيه عندما لمح جمال أمه وطبعاً لم تأبه لها حتى تبين لنا أن كلام خالتـه فقط يمكن أن يكون أكثر من كلام ولكن وقد فات الأوان هرعنا الى غرفته علنا نجد أثراً لخطاه فنستعيد حبال الرؤية، فلم نجد إلا المرسوم السلطاني القاضي بمنح جده رتبة باشا، فاكتشفنا أن ثمة خدعة ما لأن هكذا مرسوماً كان يجب أن يصل من مصر لا

Twitter: @alqareah

الاستانة، فدققنا في الطابع العثماني دون فائدة حين صرخ صوت قرب باب المصطبة: وجدتها وجدتها. ولقد كانت ورقة ملفوفة بجلد تيس وفي داخلها رقعة بحجم شباك حمام، أطرافها محروقة مسودة. كانت مليئة بالبصمات والتشويهات الحبرية والخطوط العمودية والتواريخ، فلما قلبناها على الطرف الآخر. ويا ويلي الهداية، اكتشفنا أنها وصيته.

تلك كانت إذن فاتحة الاكتشافات المذهلة. لمّا طابقنا تاريخ تحرير الوصية مع تاريخ ميلاده وجدناهما واحداً.. أي ليلة الثالث والعشرين من الشهر الثالث. قيل طلع دخان ذيله رأس النبع، راسه صخرة الغدير، وقيل السماء عكر زيت والجبال صوف مندوف، فطابقنا حروف وصيته بحروف وصية جده، فكان مقدارهما واحداً.. أي ألفاً بالتمام. وحين استعملنا حساب الجمل، وجدنا افتتاح وصية جده من سبحان الحي الذي لا يموت وحتى فهذا نصيب تتنبأ بوصيته، والخاتمة من عاجل الدنيا قبل آجل الآخرة وحتى حرر بالتاريخ المسطر أعلاه، تحكي تاريخ وصية جده بأن تنقص عند العدد التاسع ما تم عده. وهي طريقة خاصة بغرفة مندثرة، لكن الأغرب من هذا وذاك كان خط وصيته المطابق لخط وصية جده، تلك من غرائب مؤلفاته.

في الشهر الرابع لما بلغ السادسة عشرة قالت خالته: عاد جده من الخلوة، فأخرج البقرة والماعز والبغل، أخرج جرن الماء، حطّه قرب قن الدجاج. كان الليل قد هبط في تلك الأثناء، وكلنا ينام، فلما صاح الديك ولاح الصباح، ذهبت الى القن لأجلب البيض. ذلك انني أحبه ساخناً مقلياً بالدهن، فسمعت شخيراً داخل القبو. قالت

Twitter: @alqareah

خالتـه. فرأيتـه منطرحاً فوق حصيرة عمته فجر عودته، وكان لما ينهض يتـرنح نحو جرن الماء، يغسل وجهه، يتلو رسائل مقدسة حفـظهـا قبل زمن بعيد، يستعين بعكاز من خشب الجوز، يحس بجلده يفلع، ويتذكر أن جرن الماء نشف قبل قرن. كان عند العصر يفتـح مغاليق الباب السري بأصابعه المرتعشة. دوماً يتسلل الى غرفته زحفاً على أربع. وبما تبقى لديه من قوة وصبر يرفع المزاليج، يقف تحت العرائش، يستند الى العمود، ويظل يبول حتى الفجر لما يسقـط على رأسه العاري خراء عصفور جميل، فيرجع الى غرفته ويمارس عادته ذاتها سنة بعد سنة في أن يعيد رسم خرائطه، يغير حروف أوراقه، يجلد الرسائل رزمة رزمة، يتناول عشرين ركوة قهوة في النهار ويتوقف لحظة يلف لفافة تبغ، كان يخط فقط أوراقاً لو جعلت صخراً لبلطت حقولنا ثم يمزقها، يضع عطوساً في أنفه، يقلب المخدة على الوجه الآخر، يعطس بقسوة، يرتاح حتى النخاع، يغلق العلبة الفضية ويحاول أن ينام دون جدوى. كنا نسمع صرخاته المقهورة طوال ليالي الشتاء لما يضيع بين الشواهد يبكي كالأولاد: من كان؟ هل كان؟ ثم حين طلعت استانة ثانية وأخذت جلدة رأسه تضيع في الشعر على مهل. حزم أكياسه مرة أخرى واعتزل داخل الخلوة، فكنا خلال شباط عندما نتأخر في الحقول ونعود ابان الليل نأمل أن يأتي الفجر، نجد أنفسنا قرب الخلوة، تشرق الشمس، فنجـد أنفسنـا قرب البيت الكبير. كنا نذهب الى البيت، فتأخذنا الطرق الى الخلوة. وذات صباح ساخن اكتشفنا أن أشجار الجوز كانت تحيـط بالبيت الكبير. ومرة نظرت من الوادي فرأيت البيت الكبـير نائمـاً عند كتف التل مكان الخلوة، قبل أن يعتزل داخل الخلوة، بعـد أن حزم أوراقه، خرج من القبو، فتعثر وهوى قرب

Twitter: @alqareah

الدجاج حيث تقيأ برميلين من القهوة الحارة ثم انه كان ينطلق بين سنابل القمح، فيركض الأولاد خلفه: يا مجنون ارجع قبل أن تغرق. أين ترحل يا مجنون؟ حتى كان اليوم الرابع إذ انه في السادس عشر من أيلول، سمع في المنام صوت جده، فأيقظ أمه عند الفجر، قبلها على خدها. قال إن بطنه يؤلمه ولكن سأرحل الآن، شعره مصفف بعناية، مردود الى الخلف، ممسوح بالزيت، جزمته تلمع، كل أزرار قميصه مبكلة، والغدارة في النطاق الجلدي. ظنت أمه أنها تحلم عندما سمعت صوت الباب وكان قد وصل الى أشجار الجوز حينما رأت أحد أكياسه الجلدية يقع خلفه.

كان هذا قبل شهرين من عودة الأحاديث ذاتها.. أي انه سقط مهشماً فوق جرف صخري.. أي انه وجد ممزقاً وقربه شفرات الفؤوس.. أي أن صديقه خرج من تحت ثوبه، فأجفل ووقع إذ انه كان يملك ذات الوجه.. أي أن جماعة جند نصبت له كميناً عند مداخل حوران.. أي ان أخته وضعت له سماً في شرابه الحامض الصباحي: حتى أنت أماه! قالت عمته إن خالته قالت إنه قال: حتى أنت أماه، وهو ينزل عن فرسه مثل كل فجر، ينام على ظهره كعادته. حتى أنت أماه، فأمه أخبرته عقب ليلة نارية أنها عرفت كيف سيموت، كيف سيمزقون بالفؤوس ظهره، كيف سيبصقون حتى انتفاضته الأخيرة، يقلبونه بجزماتهم ليشاهدوا وجهه معفراً بوحل خوفه، بوحل استسلامه للموت، سيملأ صوتهم المقهقه السهول، سيعودون الى السلطان برأسه، جباههم تدق الغيم. حتى أنت أماه، فلقد غدروا به عكس ما قالت أمه بينما هو نائم على ظهره. عزقوا بطنه بسكاكين محمية حتى الجمر. جلسوا فوق الحجارة يتفرجون عليه يبلعط في دمه. حتى أنت أماه، لأنه عندئذ فهم جيداً كم كذبت

Twitter: @alqareah

عليه ذلك الصباح.. لأنه يموت الآن وبطنه مثل بطن دجاجة منتوفة ومنظفة، وجهه لا تراب عليه، ظهره لا خدش فيه، حتى أنت أماه، فمستغلاً كذبتها. كان أحدهم يرجمه بالحجارة، فسقطت حصاة فوق كبده، فأرسل صراخه الحاد: حتى أنت أماه. انتفض حصانه وهوى مع عينين مضرجتين في برك وحل عاصفة. حتى أنت أماه، دون عباءات أو سيوف مزينة أو بلاطات براقة أو حاشية أو حتى توائم وأبواب خشب ففي اللحظة قبل الأخيرة اكتشف أنفاً من انوف قاتليه. ولقد كان اخاه، ولقد كان أباه، ولقد كان يرجمه بالتفاح، وكانت هنالك عمته، وكانت هنالك أخته، وكانت هنالك أمه، صنارات الصوف في الكفوف والضحكات على الوجوه. حتى أنت أماه. وكنا كلنا هناك نحيط به من كل صوب وهو يرفرف بين موته وموته ذاته لا مجال، وكنا نضحك على نحو رائع ونجيد الحياة بكل قطبة فيها ونتركه وحده، يبلعط في شذوذه المقيت، يتقيأ فراغ احلامه الفارهة ويتعفن الى جنب أكياسه الجلدية.. أكياس مخططاته المشؤومة التي لو منحها الزمن روحه القرمطية لغيرت وجه امبراطورية أقفلت على الحضرة السلطانية داخل مقابر البوسفور الكلسية، فتحت بحور الكفر السبعة عمرت ميزانه المحطم، دون تفاعيل رمت قافية انشراحنا في نار وزنه الراقص حول الدار. حتى أنت أماه.. إذ انه تنبأ والدم يبلل فخذيه بحكاية أمه التالية.. أي حكاية موته اثر شذوذه المقيت.. شذوذ الاستسلام، فكيف يكون ذلك وهو الذي خلصنا من الموت مراراً. حتى أنت أماه، وكانوا يدوسون صدره، فاستجمع أنفاسه، وانقلب على بطنه. عندئذ تلقى الضربة القاتلة فأساً فوق السلسلة الفقرية تحت العنق مباشرة. قيل في ذلك الكثير. قيل إنها نزوات أمه. قيل صار

Twitter: @alqareah

ذلك فوق فراش والبيك محموم. قيل إن البيك راح يطالب أمه بحكاية بعد أن جعلت ليلها ليل فجور وشراب كأنه دم العبيد، أشهر من الصبح، وأسرع من البرق، وأبعد من النجم، وأحلى من العسل، وأحر من النار، لكن في هذه السنة ذاتها أخبرتنا عمته: ظهر للبيك شخص في صور مختلفة في داره، فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر بيده سيف مسلول، فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق، فيظهر أين كان في بيت أو صحن أو غيره. وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها، فأكثرنا القول في ذلك، واستفاض الأمر متناسين هتاف عمته بينما نبتعد.. أي أنه يسكن بين السنابل في مروج الذهب، وأقوال خالته حول نزوات أمه الحيوانية والعقد الفريد الذي يزين عنقها الشهي حتى أعاد الينا أمجاد حكاياته الغابرة إذ عبر سماءنا عند انتصاف الصيف، عبأ عرائسنا عنباً، ملأ أشجارنا تفاحاً، أشعل سراجه داخل الخلوة، وجلس يواصل صلاته على مهل.

هل رمت أمه نفسها داخل البئر حقاً، فجعلت أباه يتزوج خالته، فتنجب أخته، ويدفعه إلى القبو على مهل حتى صرخ: سأقتلك وأقتلها؟ وكانت خالته.. أي امرأة أبيه أيضاً، لا تنام إلّا مع خنجر تحت مخدتها، فحست ذات ليلة ساخنة بحفيف ثوبه خلف الباب، فأخذت تهز أباه ويدها ترتعش إلّا ان الشخير كان يعلو اكثر وأكثر، فرمت الشراشف عنها، وقامت عارية، فخذها تلمع كشفرة فأس ويدها تقبض على الخنجر. اقتربت من الباب على رؤوس أصابعها ونور القمر يغمر الغرفة عبر الستائر القديمة، لكنه لم يكن هناك، فلماذا قالت عمته إن خالته رمت عباءة جدّه فوق جسدها الذباح، أخذت سيفه من غرفته، فتحت باب المصطبة ولحقت به فظلت

Twitter: @alqareah

تضربه حتى دارت سنابل القمح بعقله، فجره أبوه إلى كهف سحيق، فهرب وضاع بين الجزم، وكيف تجرأت أخته، لفت وجهها بمنديل امه الثلجي وهرعت نحو البئر في انتحارها المتهافت؟ ترى كيف اصبحت الريح نفساً خافتاً بين شفتيه وارتعاشات الأرض عصا بين كفيه؟ ولماذا تدعي امرأة البيك انه خطف البيك، وبعد ان رماه في بئر عميقة أتى إليها لابساً ثياب البيك متمنطقاً بحزام البيك ممتطياً حصان البيك، فظننت انه البيك؟ قالت امرأة البيك إنه عاشرها شهراً بأكمله، لم يقل كلمة، فتعجبت من أمره، ما بالك يا حبيبي؟ كان العرق يسيل فوق جبهته، فيمسحه ببطنها لما انتفض فجأة والدموع تخنقه، ربطها بالأغطية، جلدها بحزامه حتى فقدت رشدها وغاب كأنه الجن. وهي الرواية ذاتها التي ادعتها الخادمة مع تحوير غبي هو ان امرأة البيك جاءت إليها الليلة تنتحب كطفلة محمومة، فأخذتها بين ذراعيها، وواستها حتى هدأت. أخبرت امرأة البيك جاريتها انها لم تعد تحتمل. قالت: ينهكني البيك طوال الليل، ما عدت أقدر. اسمعي مولاتي.. أنا البس ثيابك، أضع منديلك، أنام في سريرك، فإذا كلمني البيك في الليل امتنعت عن الكلام، فإذا داعبني داعبته، فإذا قرصني قرصته، فإذا ضاجعني ضاجعته، فلا يعرف فرقاً وأنا أدرى بك منه. هكذا قالت الخادمة واقسمت بالله. فلما كان العصر أتى يلبس عباءة البيك، على خصره سيف البيك، فوق رأسه طربوش البيك، فقالت الخادمة في سرها لا ريب هذا هو البيك ثم انها أغلقت الستائر على عجل ونفخت الشمعة، فأطفأتها وارتمت فوق السرير. فلما دخل البيك لم ينطق بحرف واحد، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا غيرت الخادمة حكايتها بعد شهر، فقالت إنها كانت تنتظر على أحر من الجمر، فلما

Twitter: @alqareah

وصـل قامت إليه وعانقته، فهزها بعنف: يا مجنونة! ماذا تفعلين هنا؟ فقالت: انها ما عادت تستطيع ان تنام في الاسطبل، وأسهر الليل أسمع تأوهات تلك الكلبة فوق صدرك، فركع امامها يرجوها ان تخرج قبل ان ترجع امراته. عندئذٍ سحبته إلى سريره، وكان يبكي كجرو كلب يبول في ثيابه، فأخبرته ما قالت امراته وكيف انها ستنام في الاسطبل من الآن وصاعداً. تلك الكلبة، فصار يضحك ويبكي ويضحك ويبكي كأنه مجنون ثم انه دخلني منشرحاً وعضّ صدري وهمس: يا هكذا تكون المناصف والمقالب يا ما تكون، وما هذا بشيء إذ ما حدثتك عما سوف أفعل بها غداً. سأجعلها تلعق قدمي قبل ان اقبل بالنوم مكانها، ولسف اجعلها تعض أصابعها ندماً، وتتمنى لو لم تدفع أمه إلى البئر كي تصلك يا حبيبي. هكذا أخبرتنا الخادمة. أما عمته التي أخذت تزداد سمنة منذ ان اختفى، فكانت تتهمنا بالخبل زاعمة انه يزورها كل مساء، فيقبل يدها، ويظل جالساً في زاوية القبو يسألها النصح وصوته منخفض ورأسه كذلك حتى أشير إليه ان تعال هنا، فيدب على أربع، ويضع راسه في حضني. أتذكر أيام طفولته لما كان يهرع من زاوية إلى زاوية، فلا يسمع إلاَّ فرقعة القصب، فيلج القبو مسرعاً، ويلتجيء إلى حضني.. أنا التي تنبأت بولادته قبل سنين بعيدة أيام كانت الدماء تغمر التلال المقابلة، كانت عمته تنتفخ مثل ضفدع مثقوب البطن رماه القدر إلى شقاوة طفولتنا، وتتلعثم في كلامها وتبصق، فكنا ننهض مسرعين: تصبحين على خير، ونمضي ضاحكين، فتنتهرنا بشطحاتها الحنونة في حين يبدأ حي الكروم شخير ثور خرافي شغلته مواسم الأرض مواسم النعاس وتموت آخر القناديل. فجأة يلتمع سراجه عند مصطبة قصر البيك المعلقة. هل تأخرنا

Twitter: @alqareah

عندئذٍ حقاً، فلم نعربش في الوقت المناسب كي نسترق النظر إلى داخل غرفة البيك، وربما نرى خرائطه؟

هل كان ما صار يصير لو انه لم يستيقظ في تلك الليلة، أرقته نوبات سعال، شعلت صدر عمته إذ انها استفاقت عندما ارتفع نقيق الضفادع من جرن الماء قرب رأسها، فسعلت بقوة، فاهتزت شرانق الديدان، وانفجرت، لها دم فاتح اللون. عندئذٍ ولج القبو مستعملاً الباب الخلفي الذي يقود إلى مصطبته، شاهد عمته تدوخ داخـل دوارهـا المرعب. صرخ: أنا هنا، فرمت منديلها على حافة الجرن، قعدت في زاوية شديدة الرطوبة، ولعت ناراً على القدر حتى تطلع رغوة اللحم، فخذها وحطها في قنينة حتى تبرد. أمرته عمته وهي تتذكر كلمات واسعة الخيال ثم أغمضت عينيها وأخبرته كل شيء دفعة واحدة: لأنك عندما تفتح الباب ستجد الكتاب الثالث بين المعجمات، وتعد خمسين صفحة. تجاوز الأسطر الأولى، وعدّ حتى صياح الديكة ثم اقرأ، ولكن إياك ان تنسى أوراق القدر الصفحات التي أهملتها مرتبة في قعر الكهف الراكد، فلا تحركه الريح، وتفسد الملحمة. وإياك اياك ان تنسى أوراق القدر بعدد الصفحات. أما هذا فأخبـرتـك إيـاه. حسناً، فاذكر البلورة المخادعة بعد ان برعمت الجيفة. ولقد كان يغلي إذ ان عمته فتحت مغاليق العاصفة كلها ودفعة واحدة، فلم يكن عليه بعد ذلك إلّا ان يبعثر أكياسه الجلدية خلف تخوم الشك المعتق كي يصل إلى الكتاب الثالث ويفك حرفه الأخير.. أي حرفه الأول.. عندما اصفرت عينا عمته إذ فهمت انها قالت كل شيء، لم يبق في صدرها ما يقال، اجتاحها يرقان مخيف، فلبثت داخل القبو منعزلة نصف ميتة ثلاثين عاماً ثم هوى رأسها وفاحت الرائحة، لكن من ذا يعرف ماذا حصل حقاً؟ فربما وجد

Twitter: @alqareah

الكتاب الثالث، وربما لم يأبه له أصلاً. أما الثابت رغم دخان هذا الحطب الأخضر وهذا النسيم الذي يخرج من الحقل تحت المصطبة هو انه كان هنا يوماً ما ثم اختفى. الثابت أيضاً ان أوراق التين هذه لم تكن هنا وقتئذٍ، وكذلك هذه النجوم المصفرة أو العكس. أما كيف حصل على عباءة جده وسراويله الداخلية وجزمته قبل عشرين عاماً وأكثر؟ وكيف استطاع ان يجد الأكياس الجلدية التي قالت أمه إن اباه أحرقها ليلة مقتل جده، فهذا ما لن نكتشف جذره السري إلاّ متى فهمنا أخبار خالته المتشعبة حول مغامراته عند الغروب في الأيام الغابرة يوم كنا نرافقه إلى الحقل دون ان نعرف من هو حقاً، فكنا نضحك على ذراعيه الانثويين. سامحنا الله. وكنا نهزأ من صدره الرقيق لا ينبت في حقله غرسة واحدة. سامحنا الله. ذراعاه لهما لون اللبن، وندفعه إلى الماء، فيسعل ويرتجف مثل طفلة محمومة. سامحنا الله. قالت خالته إنه كان يلحق بفتيات حي الكروم إلى صخرة الغدير، فلما ينزلن الماء، يخرج من خلف الصخرة، يلم ثيابهن، فيأخذها أخوه ويذهب، فتطل حبيبته من البركة والماء يغمرها حتى الحلق، فيهمس لها ان تأتي، فتحمر كالبندورة، فينشدها على مهل: ان أنت بكيت تبكي الغصون، وإن ضحكت فالعيون تدمع. عيون زرق، ريق أحلى من العسل، خدود تفاح وشعر دبس عنبي، ثم انه كان ينقلب على قفاه من الضحك قبل ان يعود إلى نشيد ثانٍ وقد أضاع حبيبته الأولى إذ ان واحدة أخرى سبحت إليها ودفعتها بعيداً، وهل كان ما كان يكون يا ترى لو لم يشق جده طريقه بين الجنود والجبال وحده مع سيفه، أبوه على كتفيه، امرأته تمشي خلفه، فيصل إلى ضيعتنا. وقتئذٍ وهي بطاح ميتة وشوك عملاق، فحفر الأقنية من النهر، عمّر

Twitter: @alqareah

قبـو العقـد، شق درباً إلى الوادي. وفي العام الثامن أنهى زرع الأشجار. كان سيفه يبرق على جنبه لأنه سيف جده أيضاً، وكان يعـود إلى القبو منهكاً، فتقوم امرأته إليه، تشع في العتمة، شعره طويل، جدائل ريح عصابته تحيط به، هو الحق.

هكذا عمته، نحيلة مثل صنوبرة فتية، تحفر قبرها في لحظة وحي فجرية، وتدفن نفسها على أمل ان يأتي فتراه، لكن كيف يصل إليها والجراد يحاصر ضيعتنا ويملأ الطرق عابراً مروج الذهب؟ وربما كانت تخرج من رأس النبع ومن خلف صخرة الغدير، وربما يسمع لطيرانها في الليل وحركتها في الهواء صوتاً كنشر ثوب جديد. كانت عمتـه قد تغطت بالتراب حتى الشفتين لما انهمرت فوقها أسراب الجراد، فسمعنا صراخها. هذا صوت ساحرة تطير ذات أجنحة من قصب. هكذا تغادر هذه الدنيا الفانية بينما خالته تمعن في جنونها، قهقهة لها صهيل المعارك. أخبروني الآن. ألسيت هذه حكاية رائعة بل واني سأخبركم كيف قتل البيك، ذهب ملعوناً في البرية، فكيف تعرفون إن كنت أكذب؟ سنقارن الأشياء ببعضها. ليس ثمة أشياء كهذه يا مجانين، فلم نكن نعرف ماذا نقول، فكنا نواصل صمتنا المغفل حتى نسمع صوتاً مثل: وجدنا نهراً يجرف جثة، فاندفعنا صوب الصوت متجاوزين برك الوحل المنثورة والضباع المتهادية قرب حدود رعبنا متجاهلين أصوات الذئاب الواهية تحت رذاذ مطر خفيف مشبع برائحة الجوع، كانت تنشد حداءها داخل بطوننا، كنـا نركض كأيـام زمان حتى جمدنا منظر جثة مقطوعة الرأس، مبتـورة القـدمـين. ولقـد كانت جثتـه، كمنت له تسـع فرق من الانكشارية بالتواطؤ مع عمته إذ ان البيك اقترح استعمالها طعماً

Twitter: @alqareah

لمؤامرة نفذت بكل اتقان، فانطلت علينا، أحاطت فرق الانكشارية بالهوة، رابطت فرقة عند بدايات الحرج، واختبأت فرقة مشاة بين الصخور داخل المياه. فلما وصل أرسلوا نبالهم تتكسر على عظامه ثم انهم فجروا رأسه سبع مرات متتالية. يحشون بواريدهم ويطلقون ثم يحشون ويطلقون، وبفؤوسهم قطعوا قدميه. لماذا قطعوا قدميه؟ كم عذبتهم آثاره! حملنا جثته على أكتافنا، فاحت رائحة توت أخضر.. رائحة تبن أخضر.. رائحة تفاح أخضر.. روائح لا تمت لأزمان مجاعتنا بصلة. وكم فاحت وكم ارتعشت ركبنا! مادت الأحجار تحتنا. اسمع صوتاً ولا أرى أحداً. من فعل هذا؟ كنا نتوغل في التيه بحيث فقدنا خطانا، صرنا ندور في دوائر متداخلات. ربما الهوة كانت تمتصنا، فوجدنا أنفسنا أمام جيفته ثانية دون راس أيضاً، ولكن سليمة القدمين الآن. أسمع صوتاً ولا ارى أحداً. من فعل هذا؟ غرقت قدمي في الوحل، أمسكتها بأصابعي المخدرة، أمست كيساً جلدياً منتفخاً بالماء، طوح الرعب بعقلي، امسكت راسي بيمناي، امسكت الكتاب الثاني، عشش الجراد في شعر صدره، أزحت اسرابه بخنجري، أزحت قصبا ينمو على خرائطه المشوهة. عندئذٍ بحّ صوت خالته، فهمت ان اقتربوا أكثر.. الموت يأكلني. تلك كانت جثة البيك، فهو ظهر للبيك في المنام، أمسك البيك من كاحليه، سحبه من فراشه، ردّ ابتسامة أمه الساخنة بين الصوف والحرير، ربط البيك فوق حصانه الليلي، ألبسه عباءته، قاده الى الكمين ثم رجع وحده الى القبور، رأى عمته تنتحب في دموع خيانتها البذيئة، خلع جوربيه الصوفيين ، خنقها على عجل، لبس جوربين نظيفين، أتى إليَّ، قبّل يدي، طلب بركتي، أخذ سراويل داخلية، أخذ مشطاً، أخذ سلة تين يابس ثم دكّ

Twitter: @alqareah

بارودته، دك الغدارتين، عبأ السراج كازاً، ملأ الجعبة بالماء وغادر البيت الكبير.

بعد ان اكتشفنا ان الأمر هكذا لأنه ليس كذلك، حلقنا شعر رؤوسنا، رمينا المعاول جانباً، وصرنا نبكي، ونبحث عن خلوته المغمورة بشمس الصباح الخريفي لما عثرنا على حصانه مبطوحاً بين البلاطات المحطمة خلف أشجار الجوز والتين، بطنه مبقور، ذيله منتوف، عيناه كانتا مقلوبتين. كانت العقبان أول من دلنا عليه ثم أخذت الديدان تفرخ بسرعة، هذا خنجره، ولقد كان خنجره حقاً إذ اننا كنا نعرف ذلك المقبض العاجي كما تعرف أمهاتنا شامات أجسادنا السوداء إذ انه كان خنجر جده أيضاً أهداه إياه السلطان بعد ان دهنه بالسم ووعده بالبكوية التي لم يطمع بها جده عكس ما يقال، لكنه لم يقبل نصائحنا أيضاً، فرحل إلى الاستانة وعاش مع السلطان ست سنين حتى أصبح أقرب الندماء إلى قلبه، فأخذ يمرق حكاية هنا وحكاية هناك عله يصلح امور الدولة، فكان يعود إلى كتبه عند المساء، يفك أحزمة أكياسه الجلدية، ينتشل أطالسه، يغيب داخل معجماته وكتبه السميكة.. تلك مجلدات العصور ورسائل الدعاة الأقدمين، وصايا الحكماء والمجربين وأحاديث الأولياء ثم يطلب إذن السلطان ويبدأ بأن: أقول لك من معادن الجوهر اني رايت في بلاد سرنديب، وهذه جزيرة من جزائر البحر، ان الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض، صغيرة البكرة، معدة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا وقبض روحه ملك الموت والحي

Twitter: @alqareah

القديم الذي لا يموت فلا تغتروا بالحياة بعده، ويطاف به في شوارع المدينة ثم يفصل أربع قطع وقد هيىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب فيحرق بالنار ويذر رماده في الرياح، والسلطان تتعتعه اللذة المقتربة، وقد جنّ الليل ومات الكلام، فأضاءت القناديل، واشتعلت الشموع، وماد قصر الحريم بالهمسات. عندئذٍ نهض السلطان من مجلسه، خلع على جدّه خلعة سنية، وأفرد له الجناح الشرقي في قصر حريمه مما كان يعني مساواة جده بالحضرة السلطانية. فلما ضمت الجدران جسد جده، يشتعل حنقاً. اخذ الكتاب السادس بين أصابعه الخشبية، وباشر يقرأ على صوت عال رسالة البلاغ والنهاية، ذلك هو وهو ذلك، لا فرق بينهما ثم انه أقسم في سره ألا يفتح علبة واحدة من الهدايا السلطانية، ووطن نفسه على الهرب قبل طلوع الشمس متذكراً حكاية شاعر قديم، وإذ بالباب يطرق. قالت خالته: ان امرأة من حريم السلطان جاءت إليه بالخنجر المشهور هدية. قالت: أعجبتني الحكاية أخبرني مثلها. قالت عمته إن السلطان لم يدهن المقبض العاجي بذلك السم الذي ما إن يلامس الجلد حتى يدخل الدم، يشعل الروح، يمتصها في لحظات. قالت أمه إن الورزاء هم من فعل ذلك. أسمع صوتاً ولا أرى أحداً. همس جده بعد ان ظل وحيداً بين جدران الغرفة. مع أكياسه الجلدية.. مع سيفه مع عباءته.. مع الحرز الذي يلامس ثديه الأيمن مع خنجره. فلما قبض عليه بكفه جعلت الحرارة تحرق كتفه، فأدرك كل شيء. قالت امرأة البيك انه قفز من النافذة. أخذ حصانه. قطع البراري في عتمة الليل. وصل إلى النهر. داخ يعبر الهوة، فأخذته إلى موته، قالت عمته إنه أغمد خنجره في الطاولة، نبش أكياسه الجلدية، أخرج ريشة ودواة حبر أسود، وجعل

Twitter: @alqareah

بيسراه، يكتب وصيته على مهل. فلما أرخها ووقعها، مزق كيساً من أكياسه المتينة، ولف الوصية به، وضعها بين الورقة الخمسين والورقة التالية من الكتاب الثالث ثم انه شال الأكياس على ظهره، مسح الخنجر المسموم بستائر القصر كلها. ينتقل في الظلام دون حس مثل الجن. أحس بالنار تحرق صدره، قلبه يشتعل، همس في أذن حصانه ان خذني إلى الخلوة. ولج القبو عند الفجر دون ان يطرق الباب. كاد يدوسني، كاد يحطم الجرن في طيش حركته، فلما فرغ من حط الأكياس داخل الحفرة، أمسك رأسه بين يديه. هذا ما قالته عمته ورائحة الثوم تقتلنا، وكذلك منظر الزيت يسيل على ذقنها. أخذ نفساً بطول صنوبرة ثم شهق شهقة، فكانت فيها روحه.

عندما أوشكنا ان ننتهي من بناء غرفته في ذلك الزمن الغابر، كان جده قد هيأ الطعام، والشمس أخذت تغيب، فكان يسلخ جلد الليل ويشق الفجر بأناة بينما يستمع إلى الأحاديث المأثورة إذ ان جده كان ناطوراً على حي الكروم وجواره، وكان عمره من عمر السنديانة جنب الدار، ويقرأ الكتب، واحتفظ بأسس علم النحو داخل رأس التيس. كان يقول لنا أهم شيء أن لا تجتمع الجيم والضاد في كلمة واحدة، ثم انه كان يقدم الاجاص بعد ولائم اللبن والزيتون والنعناع والبصل الأخضر ويقول انها كمثري، لا هذا اجاص وأنت مخطىء، فلم نكن نميز بينهما، فيصر على رأيه ان بل كمثري، فنقول لا اجاص، فيقول يا الله الليلة قصتكم عجيبة يا جماعة، فكنا نضحك من سذاجته ولا نتصور ولو للحظة واحدة كيف ستدور الأيام وتصير الأحوال. أجهشت امه بالبكاء. جلبت لها عمته ماء مغلياً باليانسون، لفتها أخته بأغطيتها الصوفية، فالتينة

Twitter: @alqareah

يبست في كل الأحوال. مسدت خالته ظهر أمه بوحل مطبوخ على الجمر. انتفخت ساقا أمه، تورم وجهها. قررت عمته ان تذهب إلى الخلوة وتطلب من جده حرز الصحة والرطوبة بينما سعلة امه تتحول إلى اليباس على نحو مريع. التفت عمته بعباءة أخيه الممزقة. وضعت خالته شالاً صوفياً على عنقها. فتحت أخته الباب. لم يسمع صرير المفاصل. لما ولجت عمته الخلوة ولم تجده خلف العمود الثاني ولا تحت النافذة الصغيرة، عربشت على الجوزة، ونظرت إلى السطح ثم انها صرخت تناديه، لكن صوتها كان يضيع بين الرياح، فركعت وأخذت تتلو أشعاراً غامضة حتى بانت نجمة واهنة في عتمة الليل. ركضت خلف الخلوة. وجدته واقفاً مثل فزاعة الصحراء، شعره مبلل بالمطر، يسيل كالمزراب، لحيته غارقة في الوحل، يداه في شرواله، وعيناه مغمضتان. ولقد كان ميتاً. قالت أمه: إنه لولا حرز الصحة والرطوبة كانت ماتت حينئذٍ، وكانت أخته تقهقه في الزاوية كعادتها، وخالته تبكي، وعمته تروي لنا كيف اكتشفت ان ذراعه اليمنى كانت غصن صفصافة وكيف ان الريشة المتحجرة في يسراه ثقبت ورقة الحرز خمساً وعشرين مرة قبل ان تخط السطور السبعة وكيف هو والهواء شمالي قارس، راسه مغمس بالماء والذئاب تنهشه على مهل بدءاً من مؤخرته.

متكومين داخل بردنا، وآخر الحطبات تتحول رماداً. هل ندرك ان الطرفة قد تتحول عالماً؟ هوذا السطر الثالث في المخطوطة التي سيتركها شيخ الخلوة لنا بعد ان تجره الضباع إلى التلال المقابلة، فيلتقي به جالساً على التراب، في يده مسبحة بتسع وتسعين حبة عنبر، عن يساره حماره، وأمامه منقل فحم. ولسوف يبصق خمس مرات وتخرج عصابته في الهواء. ثلاثون، والكل له وجهه ذاته.

Twitter: @alqareah

سيبصر شيخ الخلوة المرآة في لحظة الموت، سيتذكر السلطان الذي قاسمه الزنزانة، سيتذكر أخته. ووضعت الابرة جانباً ثم أخذت تمص ابهامها المجروح، ولكن لماذا سيقتله؟ لكنها لم تجب إذ ستأتي ليلة غزيرة المطر، فيفيض النهر، فتكتشفون ان الجيف المطمورة بين مياهه هي جيف حيوانات فقط، وسيأتي البيك إلى البيت الكبير مع الصباح، ويسأل عن صحة أبيه، وستقولون له انه ما زال ميتاً، وسيقول البيك انكم مجانين، فتقولون ان الخادمة السودانية بنت الباشا المخلوع هي المجنونة، فيقسم بكل أملاكه ويده على شواربه أن خادمة لم ولن تدخل قصر البيك. وسوف تصدقون قوله لأن هذه هي الحقيقة إذ ان امرأة البيك اخترعت حكاية الخادمة من أولها إلى آخرها كي تمرر على أزواجكم حكايات الغرام الواهم. كم أشعل أماسيكم. وطبعاً لن تدخل أية خادمة القصة بعد ان يعود البيك إلى القصر ذلك الصباح فيجده أطلال نار، وذات مساء سوف تجدون قرب الأبواب وفوق العتبات الحجرية ووراء الأجران المنسية رزماً من أغصان التوت الأخضر، فبللوها بالماء، وانشروها على السطح، فلما تجف اجعلوها فرشاً وناموا عليها، وبعد ليلتين اغسلوا الطناجر والصحون وافركوها كي يذهب الغبار لأنه سيأتي بعد جنون الليل بقليل فيرمي لكم سلال اللحم من المداخن ويضع أكياس الخبز الساخن في فجوات الحيطان الأشد سمكاً. وطبعاً سيملأ معالف خيلكم تبناً، وتسمع الزغاريد تخاطب الزغاريد، فهللوا إذ تلمع المصطبة ببياض حجارتها التي لم نرها قط باهرة من قبل لأنه هكذا يريد. ورغم العتمة الظاهرة ستنسون في تلك الثانية الخبز واللحم والبطن، ستتركون الأولاد في سعادة حضور الطعام والمؤجل منذ ليال

Twitter: @algareah

مديدة. ستتجاوزون رائحة المساء التي ستجعل الجدران تتعرق، ستدخلون غرف نومكم، تأخذون كتب الحكمة من تحت المخدات. وربما في تلك اللحظة تماماً، شهقت أخته بقوة، أسندت ظهرها بجذع الجوزة، وأعلنت انه عندئذٍ سنقوم من نومنا، سنظنه طال دهراً، وتفيق خالته. كانت تحلم ذات المنام. ومثل ذلك أمه وعمته التي ستهمس وهي تفرك يديها: يجب ان تصدقوني، مثل البيك السلطان والوزراء والحريم وامرأة البيك والخادمة، وتغمر خالته رأسها في جرن الماء، وتقسم أنه المنام ذاته.. منام واسعة الخيال أيضاً.. جدته أيضاً، وسنسمع صوتاً لن يكون إلاّ صوته لأن كل هذا موجود.. لأنه يتمدد على ظهره وينظر عبر الزجاج المتسخ إلى حبات التين والنجوم ويغمض عينيه ويرانا جميعاً.. لأنه وحده يرفرف من كل صوب، فلا يصدر عن الواحد إلاّ واحد، وتبصرونه طالعاً من دمكم، والعكس في الدور نفسه، وستسمعون صهيل حصانه داخل فجره، فتكون تلك إذن آخر نبوءات أخته إذ سعلت بشدة وصرخت تطلب ماء ثم انها عربشت على السطح فأخذ وجهها يشرق فقلنا تعافت والحمد لله، لكنها مشت صوبنا، فسقطت من العلو فوق ذبيحة بالكاد جف دمها. فلما حملناها إلى البيت الكبير وقلبناها على ظهرها لنوقظها اكتشفنا قرن الثور المذبوح الذي كنا تركناه مرمياً قرب الذبيحة، وكان قد دخل حتى جذوره في بطنها مما جعل خالته تتراجع مرتجفة صوب غرفته، فخيِّل إلينا اننا نرى وجه أمه الباكي يقهقه في السر عندما رأينا ظلاً أمام الباب، في الخارج على المصطبة، تحت التعريشة محاطاً بالضوء، وكان جسده محجوباً عنا بسبب باب الخشب، كان ظلاً رفيعاً ثم اختفى بسرعة، وكان ذلك ظله.

Twitter: @alqareah

بعد ان نسينا أو تناسينا ذلك. وقبيل عودته الرابعة عرفنا ان أخته قد أنجبت صبياً إذ ان الخادمة اجتاحت القبو بينما تخبز وأعلنت البشرى: أصبح للبيك بيك صغير، حصل هذا عند شق الضوء والسماء مثل فجلة عطشى ثم ارتفعت الزغاريد، ذبحت الذبائح، حضرت الشربات. كانت أخته أنحل من أي وقت مضى. وجهها أصفر. عيناها غائرتان جداً. جدائلها بيضاء. كانت ضحكة البيك تبلغ سبعين رجلاً. قالت الخادمة إن البيك نذر النذور وصلى الصلوات. قالت إنه كان يقضي لياليه يبكي على صدر أخته، فشاب شعره وتجاوز السبعين ربيعاً. لما قامت أخته في منتصف الليل، أيقظت البيك على عجل: اسمع جيداً. استطاع البيك ان يسمع صوت الطفل في بطنها. قفز من فراشها. أيقظ ضيعتنا بصراخه. مشينا بصواني اللوز والمغلي والصنوبر والجوز، جيوبنا ملأى بالقروش، وزعها علينا البيك في جنون فرحه الهادىء، رأينا الخراف تخرج من زرائبها وتذبح، رأينا الزغاريد. ودخلت الطيور مع الطبول إلى الساحة، علا صوت البيك يضحك، يداعب هذا، يلاطف ذاك، وضيعتنا يغمرها عيد ليس مثله عيد. دخل البيك القصر، جلب أخته، يحملها على كتفيه. جلب أحدنا عوداً: طل الحلو.. حلوة ليالينا. دقت الطبول، هزجت الأهازيج، أكلنا المغلي، شربنا الشربات، مدت الموائد، وزعت الصحون، وصلت الخراف حمراء تقطر دهناً بلون الثلج. ولد الجميل. راحت أحزاننا، وضيعتنا تغرق في فرح ليس مثله فرح. لما سمعنا صوت فرسه المزعج صهيلاً متقطعاً كحداء الموت. أخبرتنا الخادمة ان الصهيل كان يعربش فوق الأصوات الجذلة، يقتحم حلقات الدبكة. وعندئذٍ رأيناه ملتفاً بعباءته، بارودته على كتفه، سيفه في يده. رمى البيك أرضاً، اختطف

Twitter: @alqareah

الطفل. رأيناه يخطف الطفل من أخته، يقذفه في الهواء مثل صرة ثياب مغسولة، وبالشفرة البارقة يفرمه كالخيار. شممنا نيران عصابته تشعل ضيعتنا، بواريد عصابته تفجر رؤوس أمهاتنا العجائز في غرفهن الصغيرة. وكان هو، كان هو، يكشف حقيقته أمام عجزنا، منطلقاً في عاصفة انتقامه المرعب، محطماً لحظات سعادتنا القصيرة، مغمداً سيفه في بطن أخته، مكسراً شواهد قبور كل ميت أكل كسرة خبز أو شرب قطرة ماء داخل أو قرب البيت الكبير، دائراً خلال اعصاره المقيت مع أصوات الضباع ترافق ترحاله المرعب. هذا أعلن الحرب على ضيعتنا. منحناه الحليب والتفاح، يمنحنا الدم والنار. هو قاتلنا دوماً. كنا نرتعش غضباً. الكلب.. كيف يفعل هذا؟ الحقير الجزار.. ماذا فعلنا به؟ والخادمة غارقة في كنزتها الصوفية المطرزة بثلاث زهرات ربيع وشيء لزج كالعسل يسيل على ذقنها. سمعنا نحيبها المر وغرقنا في الحزن المتعاظم حتى جاءت أمه بالفطائر المحشوة بالجوز والقطر، وندهت لنا ان ماذا بكم يا أولاد؟ فأخبرناها أنه عاد وهي نائمة، وانه بقر بطن أخته بطعنة قاسية. داس رأس البيك بحوافر حصانه متمهلاً متلذذاً. رمى البيك الصغير في الهواء، فرمه مثل حبة خيار، ثم ببراميل بارود مسروق أرسل عصابته إلى البيوت. قتل العجائز، فتك بالبهائم، ولع نار القيامة في حصاد أيامنا. القمح احترق، وأشجار التفاح كسرها. وكنا نبكي ونأنف من الفطائر، فضحكت أمه وسألتنا من أخبرنا كل ذلك وكيف نصدق كل ما يقال. وعندئذٍ خرجت أخته، غير معقول، من القبو على كتفها جرة ماء، تغني من كان بالسماء في ليلة ليلاء من رفع السطول من كسر الصخور من حط القبور لماذا يا تفاح تدور كالسهول والماء صافٍ مثل التراب؟ وكانت أمه تضحك كطفلة

Twitter: @alqareah

صغيرة إذ ان أخته تمكنت وللمرة الأولى ان تغني تلك الأغنية من اولها إلى آخرها. كانت أمه تقضي العصر وأخته في حضنها ترضع من ثديها فتأبى ان تنام. قالت عمته إن أخته كانت صغيرة كانت تخاف العتمة فجعلت أمه ترضعها عند العصر وتغني لها أي شيء علّها تنام، كل هذا حلو ولكن، ولكن العقول كانت ضائعة والبطون فارغة، لم نعد نفهم شيئاً، ولا أنا، بعد ان أكلنا الفطائر ومصصنا القطر عن أصابعنا نظرنا إلى أمه، أخته جنبها ذات الوجه ذات البثور ذات الشفاه الرقيقة ذات الريق ذات الأنف الشاذ ذات الجدائل الطويلة ذات القامة القزمة ذات الحواجب الزاحفة ذات الضحكة المشتعلة بالانتظار ذات النظرات المسددة إلى التلال البعيدة، لا ريب انه كان يشخر دون أن ينام.

جلبت عمته صحون اللبنة متبلة بالثوم، والزيت يطفو على وجهها مع ذرات نعناع يابس. رفعنا الكؤوس نشرب نخبه. قال أبوه: بصحتكم. وإذا بهرة أخته السوداء تنقض خلف جرذ، فترتطم بقنينة العرق. تتدحرج القنينة حتى تصل إلى المصطبة قافزة فوق العتبة. فلما انحنى أبوه فوق المصطبة ليلتقطها لمح فوق قطرات ماء متجمعة داخل تجويف صغير في الأرض.. خيال طائر فوق التعريشة. فلما رفع راسه أبصر غراباً جناحاه دقيقان مثل أجنحة الفراشات، فنده لنا، فخرجنا إليه. فلما أبصرنا الغراب خفق بجناحه ثلاث مرات، ارسل ثلاث زعقات. حلق. طار. خيّل إلينا اننا نسمع حوافر حصانه تلطم الوحل في الوادي، وتذكرنا كلام أمه عن قرب عودته، كيف سنسمع الحصان يخب آتياً من الجبال النائية، كيف سيدور حول نفسه فوق حصى الدار المقفر مغموراً بضياء القمر وروائح الليل الماطر. طار الغراب، غاب. رفعنا كؤوسنا، بلعنا

Twitter: @alqareah

العرق في رشفات سريعة. فجأة يبس وجه أبيه. قال: أتعرفون ماذا قال الغراب؟ قلنا: لا. قال انني سأشرب ثلاث كؤوس ثم اقع ميتاً. فضحكنا واقترحنا ان يتوقف عن الشراب. لا تشرب الكأس الثالثة فتنتصر على الغراب، وبالكاد ابتسم وبالكاد أخبرنا انه قضى على الكأس الثالثة للتو إذ سقط ميتاً، جلبت أمه ثياباً أنظف. هيأت أخته الشموع. حضر البيك الجنازة، ولم تحضر امرأة البيك. كانت أصوات الفاجعة مسموعة إلى قعر الوادي. تلك الجنازة أرخت بداية الميتات الغريبة لهذا الدور، فبعد يومين فقط قيد أخوه نفسه بحبال حريرية وجدها في غرفته. ومتدحرجاً مثل لفة صوف غطس داخل الهوة. وبعد شهرين فقط صنعت أخته من الحبال الحريرية المتبقية حبلاً يزيد طوله عن العشرين شبراً ونزلت إلى البئر ثم قطعته. وبعد سنتين فقط نفذت أمه وعمته وخالته انتحارهن الجماعي بأن غمسن رؤوسهن في جرن الماء الضيق بصعوبة بالغة مما جعل أية محاولة لاخراج رقابهن من الجرن مغامرة مستحيلة حتى حطمنا الجرن وجزءاً من جبهاتهن. وقبل يومين فقط كشفت أمه لنا ان ذلك طبيعي لأنه هكذا مفروض، وان جدته وجده وجدته واسعة الخيال تنبأوا بهذا قبل قرون مديدة. وقبل شهرين فقط أخبرتنا عمته حلمها المشهور. وهكذا استدارت سلسلة الميتات الملعونة حول نفسها، عقدت خيط السلالة، اعتصمت بين جدران البيت الكبير دون حل حتى سمعنا من يقول إن ذلك مكتوب لأن ذلك مدبر، وان ذلك مفروض لأن ذلك مخطط، مقترحاً بالتالي التفسير الأكثر غرابة ولكن الأكثر قدرة على الثبات في آن معاً.. أي انه هو الذي أرسل الغراب، جعله يبول في كأس أبيه بولاً ساماً أعدمه الحياة.. أي انه هو الذي جعل أخاه يقيد نفسه بالحبال الحريرية،

Twitter: @alqareah

فهو وحده كان يلعب هذه اللعبة مع أخيه ثم انه قال له تعال نتدحرج مغمضي الأعين.. تعال نذهب صوب اليمين.. تعال نتدحرج صوب الشمال، والآن نروح هكذا.. والآن إلى تحت.. حتى أوقعه في النهر.. أي انه هو الذي أتى عند الفجر، أيقظ أخته، قال لها تعالي ننزل البئر، نتفرج على الضفادع والأواني النحاسية القديمة، وربما نجد ليرات ذهب. فلما نزلت معه قطع الحبل، تركها تختنق. وأما كيف دبر مقتل عمته وأمه وخالته، فهذا ما لا نعرفه إذ اننا لو عرفناه كنا أمسكنا كل غيوم كانون، وهو وحده يقدر على ذلك.

قالت عمته إن البيك لا يمكن ان يكون هكذا، وان خالته قد أفسدت نخاعنا، وقالت إنها ستذهب بنفسها مع شروق الشمس وتطلب قمحاً وزيتاً من البيك. لا تخافوا. وأغمضت عينيها. وكان الليل أطول من جدائلها. فلما عادت من قصر البيك والبسمة تزين شفتيها، قلنا فعلتها عمته وأنقذتنا، فقالت إنها لم تجد البيك، لكنه في الداخل، لكن عمته تركتنا، ولجت البيت الكبير، ولعت النار تحت ابريق الشاي. قطفت أربع أوراق عطر. غسلت شعرها مرتين، وجلست القرفصاء قرب باب غرفته تشرب الشاي الثقيل حتى ارتطمت ذقنها بصدرها. قالت خالته ان المصادفة قتلتها، وقالت الخادمة إن البيك نسي عمته كم ليلة بقيت مذبوحة بالسعال تعطيه ثديها. وكان الليل أطول ليل. من غرائب المصادفات اننا لما حملناها عن الأرض وجدنا تحتها عش فراشات كلها سليمة الأجنحة. فلما بدأ البكاء تساقطت أجنحتها دفعة واحدة. وطبعاً لم يصدق أحد مثل هذه الأكاذيب، لكننا وجدنا أغرب من ذلك: دخلت الدار فرس غريبة تلبس فستاناً أخضر يلامس التراب. على صهوتها كيس جلدي هائل الحجم ثم ان الفرس صهلت بقسوة ورمت قوائمها في

Twitter: @alqareah

الفضـاء، فلمـا غابت في البعـد والغبار، مزقنا الكيس بالفؤوس، يا للهول! كان الكيس طافحاً بالفراشات الملونة. يا للهول إذ اننا لما أفـرغنـا قعـره وجدنا مجرد عصافير في بطون جرذان! يا للهول! انقلبت خالته على قفاها وراحت في نوبة ضحك طويلة ثم أعلنت انها كانت تمزح. لا تخافوا، وان ذلك من قبيل الطرافة. يا للهول! عندئذٍ قطبت حاجبيهـا. وعنـدئـذٍ بدأنـا نضحك، فتركتنا وراحت. أين راحت؟ تولع النار تحت ركوة القهوة، تتركها تغلي على النار، تجلب ماء البئر في طاس، تحل منديلها، تبلله جيداً، تمسح إطارات الصور العتيقة.. صورته.. صورة جده.. صورة أبيه. لما شمت القهوة التي اطفـأت الجمـر ركضت إليها. لم تسمع صراخ أمه غاضبة عند المصطبة وحبات التين العفنة تلتصق بنعلي مداسها. سأقطع هذه التينة يوماً ما. كانت تدمدم وتهدد ثم تعربش إلى السطح تمارس مخـاطرتها اليومية القاتلة إذ ان زلة قدم واحدة كانت تكفي كي تطوح بها من فوق الأغصان إلى تحت الأشجار والأعشاب. كنا نراهـا على السطح قاعدة بين ظلال تعريشة عنب معمرة وشمس العصر تحمـر. كنـا نرى أخته في المكان ذاته عند انبلاج الضوء الأول. كنا نرى ورق العنب يصفر يخضر، نحس الزمن كيف يمضي، كيف جلدنـا أخذ يتقلع، كيف الأصحاب يتناقصون. وكنا نتنهد ونعود إلى أعمالنا كي يرجعنا الليل إلى سخونة حكاياته الرائعة، حكـايـات عودتـه القريبة. هكذا نتحول حول أمه، ننسى الجراد والعاصفة بينما الريق على شفتي أمه يلمع ونظراتها ترتحل بين الحـطبات المشتعلة والسرير المركون قربها. سرير من كان ذلك؟ السريـر الخشبي، وضعت أمه عند زواياه أربعة أعمدة خشب، نصبت عليهـا خيمـة من أغـطيته الصوفية. منعت لمس السرير،

Twitter: @alqareah

أحاطته بأوعية الخزامى ورائحة نباتات غريبة. جلبت أخته فناجين الشـاي. أعـادت قرعة المتة إلى حفرتها في الجدار. قالت أمه ان اعطيني ذاك الفنجان لا هذا، وان جدته ضربها الخرف بعد اختفاء جده، فكانت تهرول بين البيوت زاعقة: لم تنبت لم تنبت بعد.. إذ انها كانت تزرع أوراق المتة اليابسة في حقل صغير خلف المصطبة لم تترك فيه بحصة واحدة، وانها ذات مرة قصت شعرها حتى بانت جلدة رأسـهـا. زينب بجـدائلها أرض الدار. قالت أمه أخباراً لا تحصى، وقالت انها ستختفي في يوم ممطر، لكنها ماتت في فراشـها. قالت إنها ستختفي في يوم ممطر. وكنا نعرف ذلك، لكنها ماتت في فراشـهـا عقب مرض طويل في تكرار ممل للعادة ذاتها مثل جدته ومثـل خالتـه.. مرض يبدأ في عز الصيف ويميت قبل الخريف. وحدها عمته كسرت العادة الكريهة. كانت تنظف القبو من خراء الماعز لما صرخت كأنما قرصتها أمه، وهوت على وجهها، أتاها الموت سريعاً جميلاً، لم يجرجرها.. يذلها. كان ذلك اليوم الفرح الشـهير ذاته، يوم زواج البيك الذي لم تجد بين بناتنا بنتاً من مقامه. وربما هذا صحيح، ولكن ماذا عن بنات البكوات في الضيع المجاورة؟ إذن أعلن البيك عن عرس لن يكون له مثيل. بالفعل كانت امرأة البيك أول غريبة تدخل ضيعتنا إذ انه جاء بها من الساحل، ولم تكن تحجب رأسها بمنديل بل بقماشة حريرية لها لون الورد. وضعت أمه حطبة أخرى في الموقد، ورشفت بلعة شاي طويلة لم تبلعها، فتمكنا من سماع خطى الريح المسرعة في خلوات العتمة المجدبة وخـربشة الجراد فوق الحيطان. قالت أمه إنه لما يعود ستتوقف عادات كثـيرة. ولما سكتت قلنا إننا لم نفهم. ولما سكتنا قالت إن الوقت تأخر وانه يريد ان ينام. إبان ذلك كانت خالته تمرر حكايات

Twitter: @alqareah

متداخلات عن الكهوف التي يعمرها في الليل والنيران التي يشعل قرب الفجر وعصابته التي تعج بالأشداء. أما ما كان من أمر عمته فإنها كانت تظل متكومة في البقعة ذاتها تداعب تلك العصا المدببة، جلبها لها قبل ليال، قال لها: كنت أتسلى بها في أيام انتظاري.. اتركيها معك. تلك كانت مقدمة أيام اشتعالاته، وكذلك هو المشهد الوحيد الثابت من كل هذه الحكايات. أخته في الزاوية، صنارة الصوف في حضنها. عمته خلفنا خلف الجدار، نسمعها ولا نبصرها، تشخر تحت سقف القبو المرتفع، وخالته تروح وتجيء بالصواني والفناجين، وخربشة كأنها فأرة فوق أوراق حقل أيام الخريف تأتينا من داخل الخيمة الصوفية المثبتة بالسرير الخشبي، فترفع أمه صوتها: وسأخبركم حكاية الهوة إذ ان جده كان يروي حقله من النبع الشتوي. وكان هذا النبع جنب السنديانة الكبيرة.. أي قرب جب الوزال حيث تضعون المعاول والمداسات، فلاحظ ذات مرة ان النعناع كان ينبت بكثرة في الطرف الآخر من الحقل. خطرت له الفكرة. هكذا وضع لقمة الزيتون في فمه وركض إلى موضع النعناع، فلما حفر التراب وجده رطباً، فحفر أكثر، فرأى الماء. وسأخبركم كيف طلع إلى النهر. رمى عند المنعطف المشؤوم كوم التبن. وأنتم تعرفون ماذا فعل بعدئذٍ. سأخبركم متى غادر البيت الكبير. بدأ يعمر الخلوة سأخبركم حكايات تجواله في البراري. سأريكم خطوط رحلاته فوق لفات خرائطه. أنتم تعرفون انه تركها هنا. خيّل إلينا انها تشير إلى السرير، لكننا وقتئذٍ أيقنا انها تشير إلى ما وراء السرير والباب إلى غرفته. سأريكم خنجره المسموم، فتك بحاشية السلطان إذ ان الوزراء لما سمعوا حوافر حصانه الهارب تدق الصخر هرعوا إلى النوافذ، شرعوا الستائر

Twitter: @alqareah

الملوثة بالسم، فاحترقوا بنار خدعتهم الغادرة. سأدعكم تلمسون مصراعي الباب السري. كنا نبحث عنه في غرفته كي نجده في القبو جالساً جنب عمته تقص له حكايات جده أشهر خيّال في الجيوش التركية، بطل ألف معركة ومعركة، باني الخلوة، رافع لواء الحكمة.. أول من دخل زنازين الكلس البوسفورية وخرج على قدميه. قيل رق حتى خرج من الجدار. قيل اكتشف دهاليز مهملة تحت زنزانته، قيل خدع حراسه وفتك بهم، قيل وقيل لكني سأخبركم بما حصل حقاً، فالحرز على صدره كان الدليل على كراماته. وسأروي لكم الحكاية الأخرى.. الحكاية التي لم تسمعوا بها، فثمة حكايات تتجول بين البيوت، وثمة حكايات تبقى هنا خيّل إلينا انها تشير إلى السرير، لكننا وقتئذٍ أيقنا انها تشير إلى ما وراء السرير والباب إلى غرفته، فالراهب الذي ظهر فوق المصطبة يضحك، والبيك يتساقط كحفنة ليرات كان له موسيقى السقوط. أتعرفون ولم يكن راهباً بل كان هو.. أي شيخ الخلوة في الدور السابق كما لا تعلمون. صرخ البيك يطلب رجاله ركضوا إليه مع الخناجر.. فلما قال للبيك انه جاء ينقذه، أحس البيك بشيء غريب يبلل فخذيه. لماذا لا تخبركم تلك الخادمة الداهية برائحة البراز التي تملأ القصر والاسطبل والغاب المجاور؟ لماذا لا تخبركم امرأة البيك عن رطوبة القبو بين عظامها، حبسها البيك بين جرذانه خمس ليالٍ تشرينية؟ والآن بما انكم هنا انزلوا اسألوا عمته لماذا تسكن القبو. هل انا من أخرجها من هنا أم انه هو؟ وأكثر من هذا: أتريدون ان تعرفوا لماذا غادر في عباءة جده ذاتها بل كيف استطاع ان يجلبها من رماد الجثة المتطاير؟ وهل ستفهمون شيئاً يا ترى أنتم الذين سخرتم من لبن ذراعيه وحقول صدره الرملية وأمراض البنات التي تنتابه؟ أوكنتم

Twitter: @alqareah

تظنونني صماء؟ لا لا أظنكم تفهمون شيئاً، فهيا هيا تصبحون على خير، تغطوا جيداً الليلة واغلقوا الشبابيك بإحكام، لسوف يغمر الثلج جوزة البيدر ويترك أصداء عصابته تمزق سراويل ليله الهائل.

كيف كنا سنفهم كلمة من ذلك الحلم العجيب وكيف كنا سنتأكد ان عمته قد شاهدته في ليلتين متتاليتين فعلاً، فهي وحدها تقول ذلك ثم انها في الآونة الأخيرة ما عادت تميز الحمار من الكلب والبنت من الصبي. كانت أخته قد نقلت السرير بعد موت أمه إلى داخل غرفته التي أصبحت تفتح مع كل صباح كي يتبدل الهواء فلا يختنق. كانت عمته تحكي وكنا نشفق عليها ونضحك عليها أيضاً حتى هاجت رياحه ثانية إذ ان فرقة كاملة من عساكر الأتراك هوجمت قرب النهر، فسقط منها من سقط، وهرب منها من هرب. وللمرة الأولى يهرب البيك من قصره إذ انه في ذلك المساء وبينما يتناول دجاجة محشوة بالأرز المقلي بالسمن والصنوبر بالجوز الأخضر واللوز المقشور وكافة الأطايب، ظهر له قبالته على الطاولة دون فضل عن وليمة.. ظهر له هكذا شخص في عباءة مقلمة، وانه قطع دروب العصور الموحشة وحطم قوانين أزمان عديدة كي يصل إليه. من أنت؟ فرفع العباءة عن وجهه، فبان وجه جده.. أي وجه الباشا ثم وجهه، وفجأة وجه البيك ذاته. من أنت؟ وكان السيف المسلول في قبضة يده لما رمى الكوفية عن رأسه، فظهر واضحاً شق الفأس في جبهته، مكسوراً بضربة سيف عميقة، لا، لا، ولكن بلى إذ انه وضع الاسوارة على الطاولة وصرخ لامرأة البيك ان تحضر ثيابها بسرعة، فالحصان أمام الباب. لا، ولكن بلى إذ انه فجر بعقب بارودته السراج المعلق فوق السرير، فولع المطارف، وولع الستائر،

Twitter: @alqareah

وولع الحائط. لا، ولكن بلى إذ انه رمى كيسه الجلدي على الطاولة فوق يد البيك اليمنى وثبت الأخرى بخنجره. غرز خنجره في قفا كف البيك الأيسر، وجعله يبرق أسفل الطاولة مع ظلال النار المشتعلة خلف ظهر البيك. لا، ولكن بلى إذ انه أخرج لفة جلد تيس، وأخرج الدواة، وأخرج الريشة. وكان البيك يحاول ان يخلص يده من تحت الكيس الجلدي، ويرفض ان يخط وصيته. لا، اقسم بالله لست أنا من سمم لك الخنجر، لكنه لم يكن يسمعه، فثمة حشوة بارودة ما قد نسفت بطن أذنه السليمة قبل ليلة فقط ثم ان امرأة البيك كانت تنده له، فرمى لها الدجاجة المحمرة من المصطبة، لما صرخ البيك صرخته الأخيرة: لكن كيف سأكتب ويدي تحت الكيس، فضحك وجلس جنب يد البيك المغروزة بالطاولة، وأخذ يتسلى بلقم اللوبياء المتبلة بالحامض والثوم ثم بدأ يتذمر من الزيت القليل ومن الملح الكثير عندما استطاع البيك ان يخلص يده من الكيس الجلدي فيطفيء النار المشتعلة في مؤخرته ويقبض على الريشة الحادة الرأس ويباشر كتابة الوصية، لكنه قال لا، لا تكتبها، فهي مكتوبة، كتبها جدي عنك قبل أدوار بعيدة أم انك نسيت أم لم تكن تنظر إلى النار تشعل كتفه من عين السلطان المقتول مثبتة لوحته في الجدار أو انك كنت تنظر من فتحة أنفه أو لم تبصر جدي يمسح الخنجر المسموم بستائر القصر، فطلبت من الوزراء ان يشرعوا النوافذ، تخلصت منهم دفعة واحدة. لا.. أنا لم أكن هناك.. لا، ولكنه قال انه ان يحبر الريشة جيداً، فالنار وصلت مؤخرتك، فحبرها بطيش، فانسكبت الدواة فوق الوصية، وجعل الحبر الأسود يسيل فوق الحروف المهزوزة.. حروف يد مرتعشة مسمومة، انها كانت وصيته ذاتها، وصية جده ذاتها، وصية

Twitter: @alqareah

السلالة من السابق إلى التالي ذاتها، وصية الحروف المشدودة إلى بعضها بعضاً بأقفال الحكمة الباقية بخط شيخ الخلوة القاسي والدقيق والنقاط التي تقدح الصخر، فكيف لا تثقب ورقة؟ ورغم ان عمته اقسمت بالله وبه وبجده، واقسم لكم بشيخ الخلوة ان الحبر الساخن محا حروف وصيته عن آخرها قبل ان تسقط فوقها فراشة تائهة لقطت النار جناحيها، لا، لكن عمته أخذت تحلف بأغصان السلالة وجذورها. إن وصيته احترقت في ذات اللحظة التي وضع فيها البيك الريشة من يده لأنه هكذا مفروض إذ سوف يشتعل القصر برمته ويهوي فوق رأسين قاسيين طافحين بضربات الكر والفر.. آخر رؤوس هذه السلالة المشؤومة. قالت عمته وكشفت أمامنا الحقيقة المرة.. أي ان البيك كان جده الآخر، لا، ولكن بلى قامت إلى جرن الماء وشالت منه كيساً ضخماً ثم شالت من الكيس كيساً ومن الكيس كيساً آخر حتى أخرجت الكتاب الثالث ثم انها ادخلت أظافرها في غلافه الجلدي الأسود وفصلته عن الأوراق كي تدلنا على الدليل الأخير، ليس من شك بعده، كي تدخلنا في دوامة الكشف القاتل، كي ندرك ان المرسوم المحرر من الحضرة السلطانية لم يكن موجهاً إلى جده فحسب بل وإلى جده الآخر أيضاً، البيك ذاته، كي ندرك انه ليس إلّا جده ونفهم لماذا رحلوا جميعاً إلى العتمة ولماذا بقيت عمته ولماذا أجبر جده أباه على كتابة وصيته قبل ان يبلغ العاشرة إذ ان القبو كان يجب ان يستمر كمسكن عمته فقط إذ انها وحدها فكت حروف الكتب والرسائل المحفوظة في مقر الجرن، كي نكتشف والوجع الرهيب يدك رؤوسنا كيف ان معركة التل لم تكتب جملتها من أجل انتقال البارودة المجرية من يد باشا إلى يده بل من يد جده الباشا إلى يده إذ ان

Twitter: @alqareah

السلطان بعد ان أمر بسجن جده مدى الحياة عاد وأطلقه على ان ينخرط في الجيش العثماني مدى الحياة. وهكذا عندما فهمنا حكمة بقاء عمته حية طوال هذه السنين فهمنا أيضاً أنها تحتضر لأنه هكذا مفروض. أخبرتنا فكأنما دفعت بنا إلى الضوء الخفي إذ تذكرنا حلم أمه الأشهر وفهمنا لماذا كنا نتلقى كل هذه الحقائق المدهشة وكأنها أخبار مألوفة لكن محفوظة في مقر أرواحنا حيث تنتسى الأشياء، فهذه الحكاية كلها لا تخرج من ذلك الحلم. أي انها أيضاً واحدة من حكايات أمه لم نعرف لها عدداً ولا عمراً.. أمه التي سعلت بقسوة. عندئذٍ جففت الريق بقفا كفها، ووضعت المزيد من الخزامى فوق الخيمة الصوفية ثم كالعادة أمرت أخته بصرفنا، وتمددت قرب سريره. ثبتت عينيها على القبة الحجرية المرتفعة. وكما حلفت أخته أخذت تغني بصوت حنون لم نعهده من شفتيها اللئيمتين أبداً: نام نام نام ويا حمامات لا تخافوا هو ينام وينام.

عصر رحيل الجراد كنا نحفر الأرض لنطمر جثة موتنا. ذلك ان الانكشارية ستكسر الجرار بحثاً عنه. ذلك ان الانكشارية لن تذهب قبل تفجير مؤخرته. ذلك ان جيفة في لباسهم العسكري تسبح في النهر، لا تعنيهم بحد ذاتها بل لكونها نذيراً لما سوف يكونون. وكنا نطمر الجيفة على عجل ونسوي الأرض جيداً ونتكىء على جذع التوتة اليابسة عندما انهمرت أربع زخات مطر متلاحقة وانتفض النهر، في أثناء ذلك كنا قد تمكنا من إغلاق فم أمه بالصوف والقطن، وباشرنا بالصعود نحو أنفها. اتعرفون انها ذات المدة، أية مدة، المدة التي استغرقناها كي ننظف وجه أخيه من وسخ الدجاج بينما أخذت خالته أخته إلى المطبخ وأجبرتها على اكمال صحنين طافحين بالأرز المفلفل. كلي هنيئاً، إذ دخلنا المطبخ بحثاً عن ابريق الماء،

Twitter: @alqareah

فلما لمحت خالته الخنجر في جيبي، سألتنا من أين. أخبرناها انه كان مع التركي المقتول. وقعت على وجهها. أخته أخبرتنا ان ذلك خنجره. عمته نبشت الجثة، وغارت في الضحك. أما خالته فبقيت صامتة إذ ان الوجه كان محروقاً تماماً. بالطبع لم يكن هو. لا بد انـه لما سجن أخذت أغراضه. لكنه موت غريب. كيف يمكن ان يكون هو. لم نجد اسوارة في معصمه، لم نجد اي كيس جلدي قربه، ليس على صدره شعرة واحدة، وذراعاه كقوائم البغل، لا.. هذا ليس هو، لكن البيـك أعلن ان الانكشارية قد لحقت به وكمنت له عند الهوة قبل ليلة فقط، مستحيل وإلّا كيف وصلت أكياس القمح إلى البيت الكبير، صافحت الخادمة خالته، صافحت أخته، صافحت عمته ثم خرت على ركبتيها وأقسمت انها رأت البيك والباشا وعساكر الأتراك ذلك المساء يتوجهون إلى النهر فلحقت بهم، فلما كان الفجر هطل رذاذ ثلج خفيف، ورأته عائداً مع عصابته. فكرت انه قادم من الضيعـة. سمعت ضحكتـه المجلجلة، حوافـر حصـانـه تطرق الصخور، أهازيج عصابته حوله ثم نبال رماح وصراخ، فلم أعد أبصر شيئاً، قالت الخادمة انها لم تعد تبصر شيئاً. قالت الخادمة: إنه وقع في الهوة.

خرجت عمته من القبو منفوشة الشعر تتعثر بثوبها الفضفاض. رفعت دلو ماء من البئر. أفرغته فوق رأسها ثم صعدت إلى السطح، ولوحت بمنـديلهـا لأخته التي رفعت نظرها عن الغسيل، ونادت خالته. هذا ما كان من أمر عمته وأخته. أما خالته فتائهة بين القبو والمصطبة وبين المصطبة والمطبخ، فكانت تفتش عن أمه فلما رأت باب غرفته مفتوحاً، ولجتها على عجل، وأغلقت الباب وراءها. لم تعد خالته تتذكر كم يوم وليلة بقيت هناك تحت السرير خلف الخزانة

Twitter: @alqareah

فوق السرير عند باب المصطبة الواطىء بين الصناديق الخشبية، بين أوراقه المصفرة، بين كتبه السميكة، بين خرائطه المهلهلة. لم تعد خالته تتذكر عما كانت تبحث لكنها وجدت وصيته.. تماماً كما أخبرها جده قبل ان تعربش يده للمرة الأخيرة، يسقط ابريق الماء الفخاري من كفه، ويسند ظهره إلى عمود الخلوة الشرقي، ويغمض عينيه، مزقت جلدة الكتاب فاكتشفت مبتسمة انها ليست جلدة واحدة بل جلدتان مكبوستان فوق بعضهما. بأظافرها استطاعت ان تسحب الوصية وتبسطها على الشراشف البيضاء، وعندما أيقنت انها ستدرك كل شيء وان أمراً لن يمنعها مهما يكن خلعت أمه الباب. صفعتها بقفا كفها. أخذت وصيته من يدها، وطردتها من البيت الكبير. الكلبة سمحت لها ان تسكن عندي، فأرادت ان تسرقني. كانت أمه تنسى انها تتكلم عن خالته، فأخبرتنا عمته انها لم تكن خالته أبداً بل مجرد بنت يتيمة جلبها جده من مكان بعيد، سمح لها ان تظل عنده، فلما طردتها أمه من البيت الكبير، ذهبت إلى امرأة البيك، قبلت قفا يدها. قومي عن الأرض. سوف أعاملك جيداً، ولكن سأسألك أمراً واحداً فقط. وهكذا كان. صارت امرأة البيك تخرج مع العصر يرافقها البيك وخالته حتى صخرة الغدير، فيظلون هناك حتى جنون الظلام، ثم يعودون معاً يتبادلون الأخبار والبسمات، فلما ينام البيك منهكاً من السير والحديث، تنسل امرأة البيك من الفراش وملتحفة بغطاء بني مقلم بالأبيض، تنزل إلى الاسطبل حيث خالته، فتأخذ يدها بين كفيها وتقول: يا أحلى خادمة لديَّ. فتجيبها خالته بعبارات أرق، وتبدأ تمنعها، يا مولاتي ليس لي إلّاك لكن التعب يقتلني، والليل كذلك. تعالي غداً. فكانت امرأة البيك تهددها حتى ترضخ خالته لها، تبدأ تحكي، فبعد ان قرأ

Twitter: @alqareah

وصيـة جده، ولف نفسه بعباءته، تنبأ ان الباب المدعم بالخزانة والسرير لن يصمد أكثر مما صمد، فأخذ الوصية والكتاب في يده اليمنى، قبض على سيفـه باليسرى، ومغلقاً الباب السري خلفه، زحف فوق روث الأبقـار، اصـطدم بعـظام أرنب مهترىء، وسع الحفرة في الجدار، ولج قن الدجاج، وأخذ يزحف، فأدركته الخيّالة بينما يعبر سهول القمح المغسولة بالتراب والجراد، واستطاعت ان تحاصره قرب الجوزة الكبيرة، فتسلقها. وبقفزة جبارة بلغ سطح بيت نصف مهـدم. وبقفـزة أخرى سطح بيت آخر، فضيعته في الظلام. ولكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟ لكن خالته ظلت صامتة. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ لكن خالته قالت إنها لا تعرف أكثر، وانها متعبة حتى النخاع، وانها تريد ان تنام فقط. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ حسناً، افهمي هذا و إلى الأبد، فلقد وصل إلى سطح الاسطبل بعـد ست قفـزات وانتهينا. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ لكن خالته أصرت انهـا لا تعرف النهاية لأنها لا تعرفه حقاً لأن أمه وحدها تعرفه. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ صرخت امرأة البيك، جعلت خالته ترتعش خوفاً، تتبرز في تنورتها الطويلة، وتعترف إذ انه بعد ذلك سوف يأتي. يا مولاتي اهـدئي قليلاً، فسوف يبلغ سطح القصر بقفزة تاسعة، يضع وصيته عند حافة القرميد، يغمد سيفه، وينزل إلى المصـطبة، يدعو البيك إلى مبارزة حتى الموت. حتى موتك يا جدي. يتلقى ضربتـين على جبهته، ينزف من الدم نصف برميل، يغمـد سيفه تحت الكتف في أعلى قلب البيك، يترك الرعب يذهب برشدك، يعقد لسانك حتى موتك. كانت امرأة البيك صامتة تماماً لا تسمع إلّا أصواتاً مزعجة مع أصوات بلا معنى تملأ العالم، لكن خالتـه كانت تتابع كلامها بهدوء، الآن على مهل وباستكانة تامة

Twitter: @alqareah

للقـدر إذ لما ينتهي يتسلق التعـريشـة، يأخـذ وصيته عن حافة القرميد، وجاهلاً كون أمه طردتني أنا التي أحببته أكثر من نفسي دائمـاً، فإنـه سيرمي السراج المشتعـل فوق كوم التبن، يحرقني ويحرق المزرعة يمتطي حصانه يدرك انه أسقط خنجره بينما يبارز البيك يضع وصيته في جيب خفي داخل عباءته وينطلق.

أمـه المعتـادة شرب الحساء بالطاس أرادت ان تشربه في تلك الليلة بالملعقة، فلما فتحت جارور المطبخ لم تجد إلاَّ شوكاً، وكنا ننتظرها متحلقين حول مجلسها والحطبات تكاد تنطفيء لما وضعت جدائلها في حضنها، لم تمسح الريق عن شفتيها، وأخذت تسرد علينا نبوءة الكشف الأكبر.. أي ان عمته ستجنّ عقب موت خالته، فتتهم أمـه بالخبل، وتقسم انها لم تكن أمه أبداً بل امرأة البيك دائماً ثم مجرد خادمة، أي ان خالته ستجنّ عقب موت عمته، فتتهم أمه بالخبل، وتقسم انها لم تكن أمه أبداً بل امرأة البيك دائماً ثم مجرد خادمة. وهكذا دواليك وحتى آخر الأدوار والأكوار. قالت أمه بينما النقاش يعلو خلف ظهرنا. خالته تتهم عمته بالكذب، وعمته تتهم خالته بالخيانة عندما همست أخته لهما ان يصمتا، فشكرتها أمه بحركة من شفتها السفلى، وتابعت سردها على مهل، ولكن دون فواصل.. دون نقاط.. دون تنفس، وحتى دون ان تبلع ريقها. كانت تحكي كأنما تحلم، فأخبرتنا أخباراً مستترة لم تجلبها إلى حديثها من قبل، ربما كانت تخفيها عن قصد. قالت لنا متى ذهب شيخ الخلوة إلى الاستانة، حتى قتل البيك أخاه، كيف فرّ جده من سجنه المنفرد؟ كيف وقعت أخته في البئر؟ كيف أشعل خالته؟ كيف اختفت عمتـه،؟ كيف سارق بارودة يتحول سيداً لليلنا الكبير؟ والنقاش الدائـر خلف ظهرنا يزداد سخونة، أعادت علينا حكاية بدء ليله

Twitter: @alqareah

السحري، كيف حوّل النهر برمته، افسد حقل البيك، رحل إلى حوران، جمع الرجال حوله، نزلوا وادي القرن يقطعون الطرق على قوافل القمح. أخبرتنا ما كنا نعرف حقيقته دائماً، لكننا كنا نبتعد عن طريقه دائماً أيضاً.. أي اننا كنا نقول لا أبداً ومن غير الممكن ان يكون مازال حياً كي نقوم في الصباح من تحت اللحف الثقيلة ندفع أزواجنا جانباً، نفتح الباب أمام الريح القارسة، نرتعش من صقيع كانون، نخرج للأجران المهملة، نجدها ملآنة قمحاً مازال غبار وصولها طازجاً إذ من غير الممكن انه يتذكرنا حتى الآن، كنا نقول، كي نسمع طرقاً خفيفاً على الجدران، فنخرج إلى العتمة المثلجة، نحفر التراب تحت العتبة، نجد السلال طافحة بالعدس أو كنا نجد دجاجة ديك مذبوحة أمام الباب ودمها لم يجف، فلا ريب انه مات، كنا نقول، فتقع من المدخنة لفة جلد تيس، فنفتحها كي نجد تبغاً أو شاياً أو حتى خزامى ووردا. نقاش عمته وخالته مستمر، ولقد تنبأت أمه بحكايتي أيضاً، كيف سأخرج عن العصر فأراه سائراً أمام حماره، يصعد تل الخلوة، ويختفي.. كيف سأراه يقطع النهر على ظهر فرسه، كيف بفضل وصية خطها جدي سوف ننتقل إلى البيت الكبير، فأنفرد بغرفته الصغيرة وبسريره الخشبي حيث سأتمدد ليلة بعد ليلة مع أحلام تفتق بعضها، ناظراً عبر زجاج الباب الواطيء إلى حائط المصطبة المنخفض، حجارتها تبهر ببياضها، محدقاً إلى النجوم المصففة قرب حبات تين. وفجأة مؤرقاً بهذا الهمّ الجميل أدفع السرير جانباً، أدفش الصناديق. وعبثاً أحاول حتى تمر الف ليلة، فتمرق دجاجة من الباب وإلى خلف الخزانة، فلما دفعنا الخزانة وأبصرنا الحجارة المتزحزحة، بينما نقاش خالته وعمته يستمر عندما صاحت أمه: اسكتوا كي أخبركم

Twitter: @alqareah

ما حصـل، لكن خالتـه صرخت أيضاً: كفى، وكذلك عمته: كفى، وللمـرة الأولى يتكلمـان معـاً ذات الكلمات.. ذات الجمل.. ذات المقاطع: أنت لا تخبريننا حكايته بل تخبرينه هو حكاياتنا لأنه متى كف عن السماع كف عن الحياة هذا المشلول العاجز عن الحكي والحركة. أمه صرخت: اخرسوا يا كلاب. عندما قفزت خالته نحو سريره عيناها محتقنتان بالدم، وقذفت الأغطية الصوفية. وبالكاد رأينـا الجسـد الممدد على السرير، وبالكاد سمعنا صراخ عمته.. صراخ الجنون المروع، وبالكاد نتذكر كل هذا رغم ان أخته أقسمت ان ذلك لم يكن وهماً، وانه كان دائماً مجرد جسد مريض ضجر متبـرم لا يكف عن الصراخ حتى تكف أمـه عن الصمت وتباشر سردها الغرائبي، كيف سيهرب من البيت الكبير؟ كيف سيحطم هذه القوانين البالية؟ ولكن الآن نتذكر أحداثاً اخرى أيضاً لم تكلمنا عنها لكنها حصلت حقاً، نتذكر رائحة القمح حقاً وحقاً، رائحة تين أخضر، والاسطبل مجرد خشب محروق. وكم واحد منا يحمل حرزاً مثل حرزه، بخط شيخ الخلوة، ربما حصل ما حصل، وربما لا، فلقد كانت أياماً صعبة، عصرت عمته عباءته جيداً، علقتها على التينة مع جواربـه، عبـأت خالتـه الجعبة ماء بينما أخته توقد السراج إذ سينطلق بعد قليل، كنا نعرف ذلك، نعرف لماذا كتب وصيته بخط جده ذاته، نعرف كيف ستصير الأمور إذ بعد الف ليلة لما دفعنا الخـزانـة، نعرف كيف كانت الحكايات والأخبار، ورأينا الحجارة المتزحزحة. لماذا أخبرتنا أمه كل ذلك؟ وهل كان يموت حقاً؟ وشاهدنا الأقفال الحديدية، مسحنا الغبار، دفعنا الحجارة، شاهدنا الباب السري، انه هنا فعلاً. وعندئذٍ أدركنا اننا نعيش مساء عودته إلى البيت الكبير وذلك المساء فقط، فأعددنا العدة وعدنا لنتذكره.

Twitter: @alqareah

سَيِّدُ العَتمَة

ربيع جابر (مواليد لبنان ١٩٧٢)

رواية تحكي عن قرية لبنانية إبان الاحتلال التركي، وتستحضر الذاكرة الأحداث والأشخاص، فإذا كل حدث قابل للكثير من التأويلات المتناقضة، وإذا كل شخص مختلف حول حقيقته، ولكن ما يبقى موثوقاً به هو الجوع المذل والعاطفة المتأججة والتصدي للقهر.

1855131986